فإنّه نهى عنه، وقال : «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ..» الحديث[1]. فإذا شكت أرضُ جسدٍ وَقْع أمطار العبادات، وأنهكته، وخِيف أنْ لا ينتفع به؛ كالتزام الصّوم - مثلاً - في حقّ النّحيف البدن؛ قال الشّيخ السّالك لمَن رأى ذلك فيه مِن تلامذته : «أَقْلِع عَن هَذَا إِلَى أَنْ تقدِرَ عَلَيه». وأمرَ بذلك منهم مَن رآه يحتاج إليه، كالعظيم العَبَالَة الكثير الجسم الّذي فيه محمل للصّوم، كما أمر رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - العارض أنْ يُقْلِع عن البطاح؛ إذْ لم يبق فيها محمل له، وأمره أنْ يمطر على الرّبى والهضاب، فإنّ فيها محملاً لذلك. ورُبى الأجسام وهضابها هم أصحاب السّمن، وهم محتاجون إلى الصّوم؛ لتخفّ أبدانهم، فينهضوا إلى أداء الأمانة الّتي تحمّلوها من الصّلاة والقراءة وغيرهما من أنواع العبادات وسائر ما عليهم من الحقوق للنّاس وللنَّعَم بإذن خالقهم، فإنّ للنَّعَم حقًّا على صاحبها من النّاس، وإلاّ فما داموا سِماناً لا ينهضون إلى شيءٍ منها إلاّ بتكاسل، كما أنّ الأرض إذا كثُر ماءها، لا تكاد تؤدّي شيئاً ممّا أُمِنت عليه من الأرزاق، وحينئذٍ يلبسون حُللاً من سندس التّقوى؛ بما يظهر عليهم من آثار شحوب العبادة، وعمائماً برؤوس هضابهم وآكامهم؛ الّتي هي أبدانهم، بعد أنْ كانت أجسامهم شُهْباً من محلّ المعاصي، ولباس التّقوى هو اللّباس الحقيقيّ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2]، وقال الشّاعر[3] :

إِذَا المرءُ لَمْ يلبسْ ثياباً من التُّقَى   تقلَّبَ عُرياناً ولو كانَ كاسِيَا

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سورة الأعراف : من الآية 26.

(3) هو أبو العتاهية. انظر البيت في الدر الفريد وبيت القصيد. المستعصمي: 370/2.

[بركة أولياء الله على العُصاة]

"وفَارَق النّاسَ دَاءُ القَحط.." البيت؛ أيْ إذا كان في النّاس مثل هؤلاء فارقهم داء قَحْط المعاصي، وارتفع عنهم - ببركة هؤلاء - ما كانوا يستحقّون عليها مِن إنزال العذاب : **«لَوْلَا شُيُوخٌ رُكَّعٌ، وَصِبْيَانٌ رُضَّعٌ، وبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لأُنْزِلَتُ البَلاءَ صَبًّا صَبًّا»**[1]. وفي حديث أخرجه أبو نُعَيم[2] في "**الحِلية**" عن ابن مسعود أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : **«إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ ثَلَاثَمِائَةٍ؛ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ آدَمَ..»**. الحديث، وهو طويل. ولنا عليه تعليقٌ سَمَّيناه : بـ "**نُور اليَقِين في شَرْحِ حَدِيثِ أَولياء الله المتّقِينَ**"[3]. وذكر في آخره في صفة أولئك القوم : **«فَبِهِمْ يُحْيِي وَيُمِيتُ»**؛ يعني الله سبحانه وتعالى، **«وَبِهِمْ يُنْبِتُ وَيُمْطِرُ، وَبِهِمْ يَرْتَفِعُ الْبَلَاءُ»**[4].

---

(1) رواه أبو يعلي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا. انظر مسنده : 511/11. رقم الحديث : 6633. وإسناده ضعيف.

(2) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم (336 - 430هـ = 948 - 1038م). حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية. ولد ومات في أصبهان. من تصانيفه (حلية الاولياء وطبقات الأصفياء). انظر الأعلام. الزركلي : 157/1.

(3) الكتاب مطبوع بتحقيق عبد الحليم بن ثابت. بدار كتاب ناشرون. بيروت. لبنان.

(4) انظر حلية الأولياء. أبو نعبم : 9/1. والحديث بتمامه : «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْخَلْقِ ثَلَاثمِائَةٍ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ أَرْبَعُونَ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ سَبْعَةٌ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ خَمْسَةٌ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ ثَلَاثَةٌ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ مِيكَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ وَاحِدٌ قَلْبُهُ عَلَى قَلْبِ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا مَاتَ الْوَاحِدُ أَبْدَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَكَانَهُ مِنَ الثَّلَاثَةِ،

وقوله : "وانبعثت.." إلى آخره؛ إذا رأى النّكِس أو البَرم هؤلاء القوم وما هم عليه زَهَدَ في الدّنيا، وجاد بها. وقد تقدّم لنا في بعض فصول الإشارات بعض فضائل الكرم؛ ومنها : يُعْلَم مَذمّة البُخل، وكفى في مذمّته قوله تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[2]. وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ»[3].

وقوله : "إِذَا تَتَبَّعْت.." البيت؛ ظهور مثل هؤلاء الأولياء من آياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنّ تلك المنازل إنّما نالوها باتّباع سُنّته كما ذكرنا، وسُنّته من آياته، فإذا تتبّعت سُنّته ليُعمل بها، فقد أُلحِق المُنفخِم منها بالمنفخِم؛ ولِذا كان بعض الأكابر لا يبلغُه شيءٌ من سُنّته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلاّ عمِل به مَا أمكن، وبلا شكّ أنّ الهدى يزداد بذلك والإيمانُ، وتأمّل حكاية أحمد بن حنبل رضي الله عنه؛ حين امتنع من الدّخول في الماء

وَإِذَا مَاتَ مِنَ الثَّلَاثَةِ أَبْدَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ مِنَ الْخَمْسَةِ، وَإِذَا مَاتَ مِنَ الْخَمْسَةِ أَبْدَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ مِنَ السَّبْعَةِ، وَإِذَا مَاتَ مِنَ السَّبْعَةِ أَبْدَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ مِنَ الْأَرْبَعِينَ، وَإِذَا مَاتَ مِنَ الْأَرْبَعِينَ أَبْدَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ مِنَ الثَّلَاثِمِائَةِ، وَإِذَا مَاتَ مِنَ الثَّلَاثِمِائَةِ أَبْدَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ مِنَ الْعَامَّةِ، فَبِهِمْ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُمْطِرُ وَيُنْبِتُ، وَيَدْفَعُ الْبَلَاءَ».

(1) سورة الحشر : من الآية 9.

(2) سورة محمد : من الآية 38.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد عن جابر مرفوعا : ص 111. رقم الحديث : 296. والحديث صحيح.

حين دخل أصحابه[1]، وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[2].

(1) لعله يقصد ما روى عن الإمام أحمد أنَّه عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، جاء إلى بغداد عالم عظيم، وأقام على الضفة المقابلة لداره، وفاض نهر دجلة وارتفع الموج، حتى ترك الرشيد قصره، ونزل بأهله وأمواله وحاشيته إلى سفائن له، ولكن طلاب العلم هرعوا إلى العالم على الضفة الأخرى في الزوارق، وأبى الإمام أحمد حين دعاه زملاؤه إلى العبور قائلا : «أمِّي لا تدعني أركب الماء في هذا الفيضان». انظر موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق. ياسر عبد الرحمن: 27/2.

(2) سورة التوبة : من الآية 124.

[المنازل العليا تُنال بتخصيص من الله]

وقوله : "قل للمُحَاوِلِ.." البيت؛ إشارة إلى أنّ هذه المنازل، وإنْ وقع التّحريض منه على السّعي في تحصيلها، والجدّ في اكتسابها، فهي مع ذلك لا تُنال إلاّ بتخصيص سابق من الله؛ فهي مواهبه سبحانه وتعالى؛ الّتي لا يُنال أصلها بشدّ الزّيَم : «**اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1]. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ .. ﴾ الآية[2].

إذا لَم يَكُن عَوْنٌ مِنَ الله لِلْفَتَى   فأكثرُ ما يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ[3]

وإذا كان أصل هذه المواهب مِن الله، فهي لا تُنال بعِوض؛ حتّى يُقال : بِمَاذَا نَالَها هَذا دُونَ ذَلك؟، بل بمحض التفضّل من الله. وما يُقال في فضل الله : بِكَم ذا؟ فإنّه ممّا لا يُسام إلاّ بالفتح : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4]. وإذا علمت أنّ كلّ نعمة فمِن الله، فإيّاك ثمّ إيّاك أنْ ترى لنفسك – بطاعتك - حظًّا عند الله، فتَأْمَن مكرَه، إنّه لا يَأْمَنُ

---

(1) هو حديث رواه البخاري عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا في تفسير القرآن. باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾.

(2) سورة الليل : من الآية 5. ويقصد الآيات وليس الآية، وهي بتمامها : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

(3) البيت يعزى لعَلِيّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. انظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 140/3.

(4) سورة فاطر : الآية 2.

مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ[1]، أو تيأس - لعصيانك - مِن رحمته: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[2].

فربّنا - جلّ وعلا - لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية، ولولا أنّ في الطّاعة اعتناء من العبد؛ بامتثاله أوامر مولاه، واجتنابه نواهيه، فيحصل له هو بذلك عزّ وشرف بإقباله على مولاه، وضدّ ذلك في ضدّه، لكان الأمر في طاعة الله وعصيانه على حدّ السَّواء؛ إذْ يستحيل أنْ يعود شيء منهما إليه تعالى، فكَأنْ يكون ذو النّطق بالتّوحيد كذي البُكْم، وقد قال أهل السُنّة رضي الله عنهم : يَجوز نَسْخ جميع التّكاليف ونَسْخ تحريم الكفر وغيره عقلاً[3]، وإنّما امتنع ذلك، لإخبار الشّارع بأنّ ذلك لا يُنسخ؛ قال - تعالى - حكايةً عن العبد الصّالح عيسى - عليه السّلام - في شأن قومٍ اتّخذوا مع الله إلها : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

(1) اقتبسه من سورة الأعراف : الآية 99.

(2) سورة يوسف : من الآية 87.

(3) والذين قالوا بعدم الجواز هم المعتزلة، قال الآمدي : «هَلْ يُتَصَوَّرُ نَسْخُ وُجُوبِ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى وَشُكْرِ الْمُنْعِمِ، وَنَسْخُ تَحْرِيمِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْكَذِبِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا قِيلَ بِوُجُوبِهِ لِحُسْنِهِ وَتَحْرِيمِهِ لِقُبْحِهِ فِي ذَاتِهِ؟ فَذَهَبَتِ الْمُعْتَزِلَةُ - بِنَاءً عَلَى فَاسِدِ أُصُولِهِمْ فِي اعْتِقَادِ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ الذَّاتِيِّ وَرِعَايَةِ الْحِكْمَةِ فِي أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى - إِلَى امْتِنَاعِ نَسْخِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْمُقْتَضَى لِوُجُوبِهَا وَتَحْرِيمِهَا إِنَّمَا هُوَ صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ لَا يَجُوزُ تَبْدِيلُهَا وَلَا تَغْيِيرُهَا. انظر الإحكام في أصول الأحكام. الآمدي : 180/3.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]؛ أيْ الّذي لا تُغالب على ما تُريد فعلَه، والحِكمة فيما تفعلُه.

اللّهمّ يا مَن لا يُغالب أمرُه، ولا يردّ قضاءُه، استعملنا في سُنّة نبيّك - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما يُرضيك إلى أنْ تتوفّنا على الإيمان والإسلام؛ تائِبين، آيِبين، لا مبدِّلين، ولا مُغيِّرين، واجعلنا من أولئك الّذين لا خَوف عليهم، ولا هم يحزنون في الدّنيا والآخرة، بمنّك وفضلك وسِعة جُودك وكَرمك.

❁ ❁ ❁

---

(1) سورة المائدة : الآية 118.

دَعْنِي وَوَصْفي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ القِرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ

فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْناً وَهوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْراً غَيْرَ مُنْتَظِمِ

فَمَا تَطَاوَلَ آمَالُ المَدِيحِ إلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلاَقِ وَالشِّيَمِ

آيَاتُ حقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةَ المَوْصُوفِ بِالقِدَمِ

لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهيَ تُخْبِرُنَا عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إرَمِ

دَامَتْ لَدَيْنا فَفَاقَتْ كلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

مُحْكَمَاتٌ فَمَا يُبْقِينَ مِنْ شُبهٍ لِذِي شِقَاقٍ وَلاَ يَبْغِينَ مِنْ حَكَمِ

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إلاَّ عَادَ مِنْ حَرَبٍ أَعْدَى الأَعَادِي إلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَمِ

شَرْحُ الغَرِيْبِ

دَعْنِي : اتْرُكْني، وقد تقدّم.

الوَصْف : التّحْلِية أو النَّعْت، وَصَفْتُ الشّيء وَصْفاً وصِفَةً، الهاء عوضٌ من الواو. وتَوَاصَفُوا الشّيء. واتَّصَفَ هو : صار مُتَواصَفاً. وبيعُ المُوَاصَفَةِ : البيع بصِفةٍ لا رؤية. واسْتَوْصَفْتُ الطّبيبَ لدائي : سألته أنْ يَصِفَ لك ما تتعالج به. والصِفَةُ المعنى؛ كالعِلْم والسَوادِ، وعند النَّحويّين: ما يُنعت به؛ كاسم الفاعل، وما في حُكمه[1].

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 4/ 1438. مادة وصف.

وآيات : قيل المراد آياتُ القرآن العزيز، ولعلّ قائل هذا يجعل قوله بعدُ : "آياتُ حَقٍّ" بَدَل مِن هذه، وهذا محتمل، ويحتمل العموم.

وظَهَرَت : تَبَيَّنت، ظَهَرَ الشّيء - بالفتح - ظُهوراً : تَبيَّنَ. وأظْهَرْتُ الشّيء : بَيَّنتُه. وظَهَرْتُ عليه : غَلَبته. وظَهَرْتُ البيت : عَلَوْته. وأظْهَرْتُ بفلانٍ : أَعْلنتُ به. وأَظْهَرَهُ اللهُ على عدوِّه[1].

القِرَى بكسر القاف : قِرَى الضَّيف، وتقدّم.

عَلَم؛ أيْ جبل، وتقدّم. **والدُرُّ** : اللُّؤْلُؤ، واحده دُرَّة، كما واحد اللُّؤْلُؤ لُؤلؤَة، وتجمع الدُرَّة أيضاً دُرَّات ودُرَر[2].

يَزْدَاد : يَنْمُو، والزِّيَادَة والزُّوَادَةُ : النُّمُوُّ. وزادَ الشّيءُ يَزِيدُ زَيْداً وزِيادَةً : ازدادَ. وزَادَه الله خيراً، وزَادَ فيما عنده. والمَزِيدُ والزَّيْد : الزِّيَادَة. وأفعلُه زِيَادَةً، والعامة تقول : زَائِدَة. واسْتَزَادَه؛ أيْ استَقْصَرَهُ. وتَزَيَّدَ السِعْرُ: غَلاَ. والتَزَيُّدُ في السّير : فوق العَنَقِ. وفي الحديث : الكَذِب. وزائِدَةُ الكَبِد : هُنَيَّةٌ منها صغيرة إلى جنبها مُتَنَحِيَّةٌ عنها؛ وجَمعها زَوَائِد، وهو لقب سَعِيد بنْ عثمان[3]؛ لزَعمهم أنّ له ثلاث ببضات. والأَسدُ ذو زَوائدَ؛ أيْ أَظفارُه وأنيابُه وزَئِيرُه وصَوْلَتُهُ[4].

مُنْتَظم : أيْ مجموع في السّلك مُرتّب، نَظَمْتُ اللُّؤلؤ في السِلك فانْتَظَم؛ أيْ جمعتُهُ. ونَظَمْتُ الكلام : رتّبته، والتَنْظيمُ مثله، ومنه نَظَمْتُ الشِّعر ونَظَّمْتُهُ.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 730/2. مادة ظهر.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 655/2. مادة درر.

(3) يلقب بالزّوائدي.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 481/2. مادة زيد.

والنِّظامُ : الخيطُ الّذي يُنْظَمُ به اللّؤلؤ. ونَظْمٌ من لؤلؤٍ، وهو في الأصل مصدرٌ. ونَظْمٌ من جراد؛ أيْ كثير. ويُقال لثلاثة كواكبَ من الجَوْزَاء نَظْمٌ. والانتِظامُ : الاتّساقُ. وطعنه فانْتَظَمَهُ؛ أيْ اختلَّهُ. ونِظَامَا الضَّبّ : كُشْيَتَان مَنْظُومَتانِ من جانبي كُليتَيه طويلتان. وأَنْظَمَتِ الدّجاجةُ : صار في بطنها بيضٌ[1].

نَقَصَ الشّيء يَنقُص نَقْصاً ونُقْصاناً، ونَقَصْتُهُ أنا، متعدٍ ولازم. وانْتَقَصَ؛ أيْ نَقَصَ. وانْتَقَصْتُهُ أنا. وانْتَقَصَ المشتري الثمنَ؛ أيْ استحَطَّ. والمَنْقَصَةُ : النَقْصُ. والنَقِيصَة : العيبُ. ويَتَنَقَّصُه : يقع فيه ويَثْلُبُهُ[2].

التّطاوُل : أنْ تمدّ عنقَك قائماً لتنظر إلى بعيد، وطاوَلَني فطُلْتُهُ؛ يُقال: من الطُّولِ والطَوْلِ جميعاً[3].

والأَمَلُ : الرّجاءُ. وجمعه آمَال. وأَمَلَ خَيْرَهُ يَأْمُلُه أَمْلاً، وكذا التَأْميلُ. وما أَطْوَلَ إِمْلَتَهُ؛ أيْ أَمَلَهُ؛ وهو هيئَة كجِلْسة. وتَأَمَّلْتُه : نظَرتُ إليهِ مُسْتَبيناً له[4].

المَديح : الثّناء الحَسَن. **والأَخْلاَق** : جمع خُلُق، وهو ما جُبل عليه المرء من سجيّة وطبيعة. وتقدّما.

والشِّيَم بكسر الشّين جمع شِيمَة؛ وهي الخُلق أيضاً[5]. ويُقال : «ليسَ بِمَفْطوم عن شِيَمِه» : مفطور عليها في المَشِيمَة.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2041/5. مادة نظم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1059/3. مادة نقص.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1753/5. مادة طول.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1627/4. مادة أمل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1963/5. مادة شيم.

الرّحمن : الرّحيم؛ اسمان من أسماء الله سبحانه وتعالى الحسنى، مُشتقّان من الرّحمة، ونظيرهما نديم وندمان. قال الجوهري : «وهما بمعنىً. ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما تأكيدًا، كجَادّ مُجِدّ. إلاّ أنّ الرّحمن لا يجوز أنْ يتسمَّى به غير الله. قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾[1]، فعادل به الاسم الّذي لا يشركه فيه غيرَه . ويُقال لمُسَيْلمة "رَحْمَنُ اليَمامَة"»[2].

وفي هذا الاسم مبالغة؛ أيْ كثير الرَّحمة لعباده، والرَّحمة في حقّه تعالى؛ إمّا إرادته الإنعام على عباده، فهي من صفات الذّات. أو نفس الإنعام، فهي من صفات الأفعال، وفي حقّ الخَلْق الرِقَّةُ والتعطُّفُ. والمَرْحَمَةُ مثلهُ.

ورَحِمْتُهُ وترَحَّمْتُ عليه. وتَرَاحَموا : رَحِمَ بعضُهم بعضاً. والرَحَمُوتُ من الرَحْمَةِ، يقال : رَهَبوتٌ خيرٌ من رَحَموتٍ؛ أيْ لأنْ تُرْهَبَ خيرٌ من أنْ تُرْحَمَ. ورجلٌ مَرْحُومٌ ومُرَحَّمٌ، شُدّد للمبالغة. والرّحِيم للرّاحِم والمَرْحُوم، والرُحْمُ بالضمّ : الرَحْمَةُ. قال تعالى : ﴿ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴾[3]. وحَرّكه زهيرٌ فقال :

ومِنْ ضَرِيبَتِهِ التَّقْوَى ويَعْصِمُهُ مِن سَيّئِ العَثَرَاتِ اللهُ والرُحُمُ

كعُسْر وعُسُر. وأمُّ رُحِمٍ : من أسماء مكّة[4].

---

(1) سورة الإسراء : من الآية 110.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1929/5. مادة رحم.

(3) سورة الكهف : من الآية 81.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1929/5. مادة رحم.

والزَمانُ : اسمٌ لقليل الوقت وكثيره، وجمعه أَزمَانِ وأَزْمِنَةٍ وأَزْمُنٍ. وذاتَ الزُمَيْنِ؛ أيْ تراخي الوقت، كلقيتُه ذات العُوَيْمِ؛ أيْ بين الأعوام. ومُزامَنَةً من الزَمَنِ؛ كمشاهَرةً من الشَّهر[1].

والمَعَاد : مِن عَادَ يَعودُ عَوْداً، وهو الرّجوع إلى الدّار الآخرة.

وعادَ إليه يَعُودُ عَوْدَةً وعَوْداً : رَجَع. وفي المثل : "العَوْدُ أَحْمَدُ". وعادَ له بعد إعراضه عنه. والمَعَادُ : المصيرُ والمرجعُ. والآخرةُ مَعادُ الخَلْقِ. واسْتَعَدْتُهُ : سألته أنْ يُعِيد. والمُعاوَدَةُ : الرّجوع إلى الأمر الأَوَّل[2]. والمادّة طويلة.

وعَادٌ : قبيلة بعث الله إليها هود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُمّيت باسم الأبّ، وهو عَادُ بْنُ عَوْصِ بْنِ إِرَمِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عليه السّلام، وكان عمره ألف سَنة ومائتَي سَنة، ورَأى من صُلبه أربعةَ آلاف، وتزوّج ألف امرأة، وكان كافِرًا يعبد القمر[3].

وشيء عَادِيٌّ؛ أيْ قديم، كأنّه منسوب إلى عَاد، ويُقال : ما أَدرِي أَيُّ عَادَ هو؛ غير مصروف؛ أيْ أَيُّ النّاس هو[4].

وإِرَم : مدينة بناها شَدَّاد بن عَاد، وكان وليّ المُلْك بعد أبيه، فسمع بذكر الجنّة وما فيها، فقال : لا بُدَّ لي أنْ أبنيَ مثلها، فبنى إرم في ثلاثمائة سنة، وجعل قصورها من الذّهب والفضّة، وأساطينها من

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2131/5. مادة زمن.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 513/2. مادة عود.

(3) انظر الروض الأنف. السهيلي : 96/1.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 515/2. مادة عود.

ودَامَ الشّيء : استمرّ حاله، يَدُومُ ويَدامُ، دَوْماً ودَوَاماً ودَيْمُومَةً، وأَدَامَهُ غيره. ودَوَّمَتِ الشّمسُ في كبد السّماء؛ أيْ كأنّها لا تمضي. ودامَ الشّيء : سكنَ؛ ومنه : «**لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَائِمِ**»[1]. ودَوَّمْتُ القِدْرَ وأَدَمْتُها : سكّنتَ غليانَها بشيءٍ من الماء[2].

ففَاقَت : أيْ عَلَت بالشّرف[3].

وأصل **المعُجْزة** من العجْز بالسّكون، وهو الضّعف، **عَجَزْتُ** عن كذا أعْجِزُ - بالكسر - عَجْزاً ومَعْجِزَةً ومَعْجِزاً بفتح الميم وكسر الجيم فيهما، ويُفتح الجيم فيهما أيضاً على القياس. وفي الحديث : «**لاّ تَلِثُّوا بدارِ مَعْجَزَةٍ**»[4]؛ أيْ بلدة تَعجِزون فيها عن الاكتساب والتعيُّش. **أَعْجَزْتُ** الرّجل : وجدته عَاجِزاً. وعَاجَزَ فلانٌ : ذهب فلم يوصل إليه. والتَعْجِيزُ: التّثبيط، وكذا النّسبة إلى العَجْز. وأمّا المُعْجِزَة : فواحدة مُعجِزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهي اسم فاعل من أَعْجَزَتْني هذه القضيّة، فهي **مُعْجِزَة**؛ أيْ فاتتني، ولم أستطعها. وأعْجَزَهُ الشّيء : فاته[5].

---

(1) هو جزء من حديث رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الوضوء. بَاب الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ. ورواه غيره.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1922/5. مادة دوم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1546/4. مادة فوق.

(4) رواه ابن أبي شيبة عن عمر موقوفاً. انظر المصنف : 304/5. رقم الأثر : 26328.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 883/3. مادة عجز.

[حقيقة المعجزة ووجه دلالتها]

وهي عند المتكلّمين : «أَمْرٌ خَارِقٌ للعَادَةِ، يَقَعُ عَلَى وِفْقِ دَعْوَى الرَّسُولِ الرِّسَالَةَ، مُقَارِنًا لِلدَّعْوَى، مَعَ عَدَمِ المُعَارَضَةِ».

فقولنا : "خارق للعادة"؛ لأنّ المعتاد لا يدلّ على الصّدق، لعدم اختصاصه.

والخارق قسمان : ما ليس من قبيل مقدور البشر؛ كقَلْب العصا حيّة، وانشقاق القمر، وتسبيح الحصى. وما هو من قبيل مقدورهم، لكن مُنعوا منه؛ كمنع اليهود من تَمنِّي الموت.

وقولنا : "على وِفق الدّعوى"؛ يخرج مَن يقول : آية رسالتي أنْ يُنطق الله يدي بتصديقي. فتنطق بتكذيبه، وفي كون ذلك في الميّت إذا حَيِي وكذّبه مُبطلاً لدعوته خلافٌ، والفرق: أنّ الجماد لا غرض له في المخالفة، بخلاف الإنسان، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ.. ﴾ الآية[1].

وقولنا : "مقارنًا للدّعوى"؛ يخرج مَن يقول : آية رسالتي ما ظهر على يدَيْ مَن تقدّم قبلي. وأمّا إنْ قال : ما سيظهر في المستقبل، فهو في الحال لا يُحكم بنبوّته، وإذا وقع ما ذكر، هل يكون له بذلك حُكم النّبوّة فيما قبل وقوع ذلك الشّيء، حَكَى بعضهم فيه التردّد.

وقولنا : "مع عدم المعارضة"؛ احترازًا من السّحر والشّعبذة، فإنّهما يُعارضان[1].

---

(1) سورة الأنعام : من الآية 28.

(1) انظر تعريف المعجزة في المواقف. الإيجي : 338/3 وما بعدها.

«**إنَّ الجَنَّةَ لِلْمُحَكَّمِينَ**»[1]؛ وهم قوم من أصحاب الأخدود، حُكِّموا وخُيِّروا بين القتل والكفر، فاختاروا الثّبات على الإسلام مع القتل[2].

فمعنى مُحْكَمَات على هذا؛ أيْ منقاد لأحكامها. ويحتمل أنْ يكون بمعنى مُتقنَات؛ لتحْكيم نَظمها، وبلوغ بلاغتها الغاية القصوى؛ مِن أَحْكَمْت الشّيء؛ أيْ أتقنته. والتّعدية بالتّضعيف تعاقب التّعدية بالهمزة قياساً عند بعضهم. أو بمعنى مُوَضَّحَات؛ مِن أَحْكَمْت الشّيء؛ أيْ أوضحته، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾[3]. أو بمعنى ممنوعات من التّغيير والتّبديل محفوظات؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[4]. ومنه قولهم: وحَكَمْتُ الرّجل تحْكِيماً؛ إذا منعته ممّا أراد. وحَكَمْتُ السّفيه وأَحْكَمْتُهُ: أخذتُ على يده[5].

فَمَا يُبْقِينَ؛ أيْ ما يَتْرُكن، وبَقِيَ يَبْقَى بَقَاءً. وبَقِيَ الرّجل زماناً طويلاً: عاش. وطَيّء تقول: بقَى وبقَتْ بالفتح، وكذا في شبهه من المعتلّ. وأَبْقَاهُ الله. وبَقِيَ منه بَقِيَّةٌ. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[1]؛ أيْ بَقاءٍ. وأَبْقَيْتُ عليه؛ إذا رَحِمْتَهُ. وفي الحديث: «بَقَيْنا

---

(1) أورده ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: 419/1. ولم أقف على الحديث مسندًا.

(2) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير: 419/1. مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني: 255/1.

(3) سورة آل عمران: من الآية 7.

(4) سورة يوسف: من الآية 12.

(5) انظر الصحاح. الجوهري: 1901/5. مادة حكم.

(1) سورة الحاقة: الآية 8.

حُورِبَت : قُوتِلَت، والحَرْبُ مُؤنّثة، وتصغيرها حُرَيْبٌ. بلا هاء سماعًا. قال المازني[1]: «لأنّه في الأصل مصدر». وقال المبرّد : «قد تُذكّر». وأنا حَرْبٌ لِمَن حارَبَني؛ أيْ عَدُوٌّ. وتَحارَبُوا وَاحْتَرَبُوا وحَارَبُوا بمعنىً. ورجل مِحْرَبٌ بكسر الميم؛ أيْ صاحب حُرُوبٍ. وقوم مِحْرَبَةٌ. والحَرْبَة : واحدة الحِرَابِ[2].

قَطُّ : بفتح القاف وشدّ الطّاء مضمومة : ظرف زمان ماضٍ.

قال أبو عليّ الفارسي : «هو اسم ينتظم أوّل الوقت[3] على آخر ما بلغت منه، فهو عبارة عن أمده ومدّته، فوجب لذلك أنْ يكون مُضافاً إلى ذي الوقت، كما أُضِيفت إليه "قبلُ" و"بعدُ"، فلمّا اقتُطِع عن الإضافة، بُنِي على الضمّ كـ "قبلُ" و"بعدُ"»[4].

وقال ابن مالك : «قطُّ للوقت الماضي عموماً، ويقابله عِوض»[5].

وقال الجوهريّ : «معناها الزّمان. قال الكسائي : "كانت قَطُطْ، فلمّا سكّن الأوّل للإدغام، جُعل الآخر متحرّكاً إلى إعرابه". ومنهم مَن يضمّ القاف اتّباعاً؛ مثل مُدّ يا هذا. ومنهم مَن يُخفّفها، يجعله أداة، ويبنيه على آخره بضمّة مشدّدة. ومنهم مَن يضمّ القاف مع المخفّفة أيضاً؛ نحو : مُذْ يومان، وهي قليلة. هذا إنْ

(1) هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقية، أبو عثمان المازني، وسبقت ترجمته.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 108/1. مادة حرب.

(3) في المطبوع من كتاب المسائل الشرازيات : وقت ذي الوقت.

(4) انظر كتابه المسائل الشرازيات : 209/1.

(5) انظر كتابه سهيل الفوائد وتكميل المقاصد : ص 95.

كانت للزّمان، وإنْ كانت بمعنى حَسْب؛ وهو الاكتفاء، فمفتوحة ساكنة الطّاء وتُضاف؛ نحو : قَطْكَ هَذَا؛ أيْ حَسْبُك. وقَطْنِي وقَطِي وقَطْ»[1].

عَادَ : إمّا بمعنى رَجَعَ، وإمّا بمعنى صَارَ. قيل : «ويصحّ أنْ يكون بالذّال المعجمة؛ من التعوّذ؛ أيْ استجار بالله مِن حربها أَعْدَى الأعَادِي».

وحَرَبْت الرّجل حَرَبا بفتح الرّاء : سلبته، والحَرَب أيضاً مصدر حرِب بالكسر؛ أيْ اشتدّ غضبه. فهو حِرِبٌ وأسد حَرِبٌ. وحَرَّبْتُه : أغضبتُه. والتّحْرِيب : التّحريش. وتقول من الأوّل : حَرَبَهُ يَحْرُبُهُ حَرَباً؛ كطلبه يطلبه طلباً؛ إذا أخذ مالَهُ وتركه بلا شيء. وقد حَرَبَ مالَهُ؛ أيْ سلبه، فهو مَحرُوبٌ وحَرِيبٌ. وأَحْرَبْتُهُ؛ أيْ دَلَلْتُهُ على ما يَغْنَمُهُ مِن عدوّ. وقيل: الحَرَب الويل[2].

وأَعْدَى : إنْ كانت من العَدَاوَة؛ أيْ أشدّهم عَدَاوَة، فهو غير مقيس، سواءً كان من العَدُوّ الّذي هو اسم، أو مِن فِعله؛ الّذي هو عَادَاهُ يُعَادِيه؛ لأنّ "أَفْعَلَ" التّفضيل لا يُصاغ من الاسم، ولا مِن فِعل زائد على ثلاثة أحرف. وإنْ كان مِن فِعل العَدَا بالمدّ والفتح، وهو تجاوز الحدّ والظّلم؛ أيْ أشدّهم عَدَاءً، فهو مقيس؛ لأنّه ثلاثي، يُقال : عَدَا عليه عَدْواً وعُدُوًّا وعَدَاءً؛ ومنه : ﴿عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾[3].[4]

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1153/3. مادة قطط.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 108/1. مادة حرب.
(3) سورة الأنعام : الآية 108.
(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2419/6. مادة عدا.

والأَعَادِي : جمع أَعْدَاء، وَأَعْدَاء جمع عَدُوّ، وهو ضدُّ الوَلِيِّ. وهو وصفٌ ولكنّه ضارع الاسمَ. يُقال : عَدَوٌّ بيِّن العَدَاوَةِ والمُعَادَاةِ. والأنثى عَدُوَّةٌ. قال ابن السكيت : «إنّما الأنثى من "فَعُول" بمعنى "فاعل" بغير هاء؛ كصبور». وكذا عَدُوَّة الله؛ قال الفَرَّاء : «إنّما كان بالهاء تشبيهاً بصديقة؛ لأنّ الشّيء قد يُبنى على ضدّه». والعِدَى بكسر العين : الأعْداءُ، لا واحد له. وقال ابن السكيت : «ولم يأت فِعَلٌ في النُعوت إلاّ قومٌ عِدًا؛ أيْ غرباء، أو أعْدَاءٌ. ويُقال في الأعَدَاء : عُدًى أيضاً. كسِوَى وسُوًى». قال ثعلب : «يُقال : أعْداءٌ وعِدًا بكسر العين، فإنْ أُدْخلت الهاء فعُدَاةٌ بالضمّ». والعَادِي : العَدُوُّ. وسُمع : أشْمَتَ ربُّ العَالَمين عَادِيَكَ[1].

مُلقِي : تقدّم قريباً.

والسَّلَم : بفتح السّين واللاّم أو مع سكون اللاّم، وبكسر السّين مع سكون اللاّم : الصُّلح . والسَّلَم أيضاً بفتحهما : الانقياد. والسَّلْمُ : الصّلحُ، يُفتح ويُكسر، ويُذكِّر ويؤنّث. والسِّلْمُ : المُسالِمُ. تقول : أنا سِلْمٌ لمن سَالَمَنِي[2].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2419/6. مادة عدا.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1950/5. مادة سلم.

التَّفْسِيْرُ

[ظهور آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

أمّا مناسبة قوله : "دَعْني.." لِما قبله من كلامه الّذي هو قبل قوله : "لمّا شَكَت.."، فإنّه لمّا قال : "أَحْيَت السَّنَة الشَّهبَاء دَعْوتُه"، وذلك يستلزم كَون تلك الآية ظاهرة لجميع النّاس، فإنّ عموم القَحْط والخَصْب لا يختصّ به واحد دون آخر، وأيضاً فإنّ منها ما كان وهو على المنبر، وتقرّر في الأصول أنّ الإخبار عن مثل هذه الواقعة إذا لم يُنكر، يحصل العلم بصدقه قطعاً، فكأنّه قدّر أنّ العدوّ والكافر الجاحد المكذّب بما يسمع من النّاظم من الإخبار عن معجزاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له لتكذيبه بها : كُفَّ عنّا من الأخبار الّتي لا نُسلّمها. فأجابه النّاظم - رحمه الله - تقديرًا بأنْ قال : كيف يليق بك إنكار مثل آية الاستسقاء، بل ما من آية من آياته، إلاّ وشاهَدَها من الجمع الكثيرُ، مثل مَن شاهد آية الاستسقاء، وربّما كان أكثر، فيا أيّها الجاحد للضّروريات، دعني - أيْ اتركني - مع حالتي الّتي أنا عليها من وَصفِي - أيْ ذكري — آيات - أيْ معجزات - كائنات له، أو ظهرت له ظهور نار القِرى - أيْ الضيافة - وهي النّيران الّتي كان الكِرام مِن العرب يأمرون بإيقادها وتكبيرها، ولِذا قال : نار القِرَى ليلاً على جبل من الجبال من المعالم المرتفعات؛ الّتي يُهتدى بها، وإنْ لم يكن عليها نار، كما أنّ النّار في غير عَلَم كافية في الاهتداء بها باللّيل، وإنّما يفعلون ذلك ليهتديَ الأضياف إلى منازلهم، وإذا كان كلٌّ مِن العَلَم والنّار ليلاً كافياً في الاهتداء به، فما ظنّك باجتماعها، فهو يقول : إنّ ما

أصفُ مِن آياته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يسع إنكاره؛ لظهوره مثل ظهور نار القِرَى الكبيرة ليلاً على عَلَم.

وأمّا مناسبته لِما قبله من الأبيات المزيدة : فإنّه لمّا قال : "لَولاَ العِنَايَة.." البيت، توهّم أنّ قائلاً يقول : فلِم تَصِفُ إذًا؟ فقال : قصد العناية ووَصْف ما لا ينبغي كتمانه؛ لظهوره ظهور النّار المذكورة على المكان المذكور، فدَعْنِي .. البيت. فالخطاب في قوله : "دَعْنِي"، لهذا النّوع المُقدَّر. ويحتمل أنْ يكون من الخطاب العام، ويحتمل أنْ يكون خطاباً مع النّفس؛ إنّ قُدِّر أنّها تقول : يَكْفيكَ مِن هذه المدائح. فأجابها بالبيت؛ مُعلماً لها أنّ راحته في ذلك.

قال بعضهم : «قوله : "ظَهَرَت.." إلى آخره؛ إنْ جُعِل نعتاً لـ "آيات"، اقتضى المعنى : دَعْنِي مع وَصفي لهذا النّوع من الآيات خاصّة، ويُعطي بمفهومه أنّ له - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آيات أخرى لم تظهر هذا الظّهور، ويحاشي النّاظم من هذا القصد، وأيضاً فإنّ السّياق يدلّ على أنّه أراد بتلك الآيات الأخلاق الحسنة، وهو قد قال بعدُ : "فمَا تَطَاول.." البيت. فإنْ كانت "ما" نافية، فقد أخبر أنّها لم تُوصف، فيبقى مرتهنًا بما اِلْتزم من وصفه للآيات. والّذي يُخلّص من الإشكالين : جَعْل جملة "ظَهَرَت.." جواب سؤال مُقدَّر؛ كأنّه قيل : ما الآيات الّتي طلبتَ تَركَكَ مع وَصفها؟ فقال : ظَهَرت». انتهى.

قلتُ : إن سُلّم كونها نعتاً، فهي من النّعوت اللاّزمة التّأكيديَّة، وليست مخصّصة؛ لأنّ الظّهور لازم لكلّ آية من آياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنْ سُلّم كونه مخصّصًا، لكنّ الخطاب مع الجاحد كما قرّرنا

أوّلاً، فهو يقول له : أنا لا أصف لك منها إلاّ ما لا تنكره ممّا ثبت تواترًا، وأمّا ما ثبت بالآحاد فلا، لأنّه يمكنك فيه الإنكار، ثمّ ليس في هذا ما ينبغي أنْ يحاشي منه النّاظم، بل هو أبلغ في المدح؛ إذْ يقول : أنا لا أتعرّض إلاّ لِوصف ما هو من الآيات بهذه المثابة، ثمّ لا أقدر على حصر هذا النّوع، فما بالك بغيره، ويدلّ على هذا قولُه بعدُ : "فما تطاول.."؛ أيْ لم تشرف آمال المديح إلى قصد ما فيه من كرم الأخلاق، وهذا نوع من الآيات ملازم له؛ لكونه من صفاته، فما بالك بجميع أنواعها.

وبهذا تعلم أنّ قوله : "فَمَا تَطاَوَلَ.." البيت غاية المدح، لا إخبار عن نفيه، كما توهّم هذا القائل، حتّى جعله مرتهناً بما اِلْتزم من المدح، لم يأت به بعدُ، وبهذا عُلم الجواب عن قوله ثانياً : إنّ هذه الآيات هي الأخلاق الحسنة. وهو نَفى وصفها بقوله : "فما.." البيت. فإنّه إنْ سُلِّم أنّها المراد، فما نفى وصفها، بل هذا البيت هو مِن أبدع ما مدح به، فما ظنّه نفياً للمدح، هو الغاية القصوى فيه، فإنّ العجز عن درك الإدراك إدراك، وإنّما هذا البيت - أعني "فما تطاول.." - من الأبيات الّتي هي من هذا القصيد غاية في المدح، وهو مِن أبلغ ما افتكّ به نفسه ممّا اِلْتزم، ثمّ قوله : "فما تطاول.." وقع في شرح هذا القائل بعد قوله : "دعني.."، وإنّما هو ثالثه.

[وصف آيات الرّسول عليه السلام مع ظهورها لكل من شاهدها]

قوله : "فَالدُرُّ.." البيت؛ جواب عن سؤال مُقدَّر يرِد على البيت الّذي قبله، وتقدير السّؤال أنْ يُقال : إذا كان ظهور آياته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كظهور نار القِرَى ليلاً على عَلَم، فكلّ النّاس يشاهدها، فما فائدة الْتِزامك وصفها، وطلبك أنْ تُترَك وذاك؟ فأجاب بأنْ قال : إنّها وإنْ كانت مُدرَكة وحسنها ظاهر، إلاّ أنّ تعرّضِي لِوَصفها بالنّظم يزيدها حسنًا، وإنْ كان قَدْرها لا ينقص إنْ لم تُنظَم، ثمّ إنّه أفاد هذا المعنى فيها مستدلاً عليه بمثال محسوس، يُدرك فيه هذا المعنى؛ وهو الدرُّ، فإنّه حَسَن في نفسه، فإنْ نُظم ازداد حسناً؛ لِما يثبت له من التّرتيب والمنازل المتناسبة، مع أنّ قَدْره؛ أيْ شرفه ومنزلته الثّابتة له بحسب ذاته، لا ينقص حاله كونه غير مُنتظِم، نعم؛ حسنُه الّذي يظهر للعين إنْ نُظِم ينقص إنْ لم يُنْظَم، وهذا بيّن؛ لأنّ ما يزيد بوصف، ينقص بسلب ذلك الوصف، فكذا ما يحصل من زيادة الالتذاذ بسماع الآيات منظومة؛ لِما صاحَبَ لذّة الإخبار بها من لذّة الأوزان الشّعرية، والنّغمات النّظامية، ينقص مع الإخبار بها نثرًا، وقَدْرها من التّعظيم الحاصل لها في ذاتها لا ينقص.

فإنْ قلتَ : لِم لَم يقتصر على قوله : "يزداد حسنًا"؟ فإنّه إذا أخبر أنّه إنّما يزداد بالنّظم حسنًا، عُلم أنّ أصل الحُسن حاصل له قبل ذلك، فما فائدة قوله : "وَلَيْسَ.." البيت.

قلتُ : هذا كالاحتراس رفعاً لما يُتوهّم من أنّ ازدياد الحُسن بالنّظم، يوجب فواتُه نقصَ القَدْر.

والنّفي أمدح؛ فإنّه نفى التّطاول من أصله؛ للإياس مِن إدراك ما يُتطاول إليه، والاستفهام أثبته، إلاّ أنّه استبعد وقوعه لعدم الفائدة فيه. ويحتمل أنْ يُشبّه المديح بإنسان، وأثبت له آمالاً كما للإنسان، ثمّ شَبّه تلك الآمال بذِي عنق يَتطاوَل بها إلى ما يُريد إدراكه. وقيل : «المعنى إذا كانت محاسنه ظاهرة مثل النّار فوق العَلَم ، فما عسى أنْ يبلغه المدح». فتأمّله.

وقوله : "آيَاتُ حَقّ.." البيت؛ إنْ نصبتَ "آيات" فبَدَل من قوله : "آيَات لَه"، والمراد بهذه الآيات القرآن العظيم، ولا خفاء بظهورها، فإنّها الآية الّتي قامت لها الدّنيا على قدم. وإنْ رفعتَه؛ فالتّقدير : تلك الآيات آياتٌ حقّ، فيرجع إلى معنى النّصب، أو يكون التّقدير : من تلك الآيات الّتي ظهرت آيات حقّ. والمراد بالحقّ القرآن، وبذلك وصفه الله – تعالى – فقال : ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[1] و : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[2]. وهو كثير.

وقوله : "من الرّحمن"؛ أيْ منزّل من الرّحمن، وخصّ هذا الاسم العظيم بالذّكر في هذا المقام، لأنّ إنزال الكتاب إلى الخَلق رحمة لهم، وكذلك بَعْث النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رحمة لهم، وقد وصف الله – تعالى – القرآن بأنّه رحمة، فقال تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وقال في وصف محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

---

(1) سورة البقرة : من الآية 91.
(2) سورة النساء : من الآية 105.
(3) سورة لقمان : من الآية 1 إلى الآية 3.
(4) سورة الأنبياء : من الآية 107.

الأوّل : أنّ القِدم والحدوث ضدّان لا يجتمعان في المحلّ الواحد. الثّاني : يلزم أنْ يكون الباري تعالى محلاً للحوادث، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. الثّالث : الصّفة القديمة لا تفارق الموصوف، ولا اختصاص لها بمخلوق، فلا تكون آية لأحد.

وإنْ أريد بها الحروف والأصوات، فلا يصحّ أيضاً؛ لاجتماع الضدّين، ثمّ هي حادثة، فلا يُخبر عنها بأنّها قديمة، ولا بأنّها صفة الموصوف بالقِدم؛ لأنّ الموصوف بالقِدم لا يتّصف بما يدلّ على حدوثه، ولا بأنّها لم تقترن بزمان، فإنّ الحادث مقترن بالزّمان.

والانفصال عن هذا الإشكال : ما أشرنا إليه أوّلاً؛ من أنّها موصوفة بالحدوث باعتبار، وبالقِدم باعتبار، وبَسْطه أنْ يُقال : أراد بـ "آيات حقّ" - الّذي هو المبتدأ - الحروف والأصوات؛ الّتي هي معجزته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنّ كلامه في ذلك، و"محدثة" خبر عنها إذ ذاك صفتها، وأمّا قوله : "قديمة"، فخبر مبتدأ محذوف، يدلّ العقل عليه، تقديره : مدلولاتها أو معانيها قديمة؛ أيْ معاني تلك الآيات قديمة، و"صفة الموصوف" خبر ثانٍ عن هذا المُقدَّر، و"لم تقترن" خبر ثالث عنه أيضاً، والضّمير المبتدأ في قوله : "وهي تُخبرنا" وكذلك فاعل "تُخبر" عائدان على "آيات حقّ"؛ الّتي هي المعجزة، فهذا تحرير القول في شرح هذا البيت.

فإنْ قلتَ : في هذا الشّرح اختلاف مرجع الضّمير.

قلتُ : إلاّ أنّه أمر واجب لا بدَّ منه، لِما يؤدّي إليه بقاء الكلام على ظاهره من المحذورات العظيمة.

ووقع في شرح بعضهم : "آيَات صِدْقٍ مِنَ الرّحمَنِ مُحكَمَة"، وقال : «إنّ هذه أوصاف؛ منها ما يرجع إلى "آيات" باعتبار لفظها، ومنها ما يرجع إليها باعتبار معناها، ومنها ما يرجع إليها باعتبار اللّفظ والمعنى، فمِن ذلك قوله : "صِدق"؛ إنْ كان من الصّدق ضدّ الكذب؛ من معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾[1] فخاصٌّ باللّفظ، بل بما كان منه خبرًا فقط، وإنْ كان من معنى الكمال؛ كقولهم : رجلُ صِدق؛ - أيْ كامل - فصالح لهما معاً. و"مُحْكَمة"؛ إنْ كان معناه متّضحة المعنى؛ مِن المُحْكَم الّذي هو ضدّ المتشابه، فراجع إلى اللّفظ؛ لأنّ المعنى قديم، لا يُحْكَم ولا يتأثّر بفعل فاعل عند أهل الحقّ، وإنْ كان معناه مانعة نفسها من المعارضة؛ لأنّ الحِكْمة قد تكون بمعنى المنع قِبَلهما، وهذا أَوْلى لعمومه. وقوله : "قديمة" خاصّ بالمعاني، ولا يرجع إلى اللّفظ، إلاّ على رأي الحنابلة[2] في رؤيتهم ألفاظ القرآن قديمة، وهو

(1) سورة الزّمر : من الآية 33.

(2) قال العلامة الحسين الوثلاني : «وجملة الألفاظ حادثات لست قديمة، خلافا للحشوية القائلين بأنّ ألفاظ القرآن قديمة وكذا حروفه – أيْ نقوشه – بل وكذا المداد الذي يكتب به كان حادثا، فلما كُتب به القرآن صار قديماً، وغير ذلك من حرائفهم واختلال عقولهم، وقد تمسّكوا بظواهر مستحيلة، وبذلك قالت جهالة ورعاع نسبوا أنفسهم للحنابلة ظُلمًا وغلوًّا، وأحمد ووجوه أصحابه براء منهم ومن مقالتهم، وكفى شاهدًا على جهلهم، ما نُقل عن بعضهم أن الجلدة والغلاف أزليان، وعن بعضهم أنّ الجسم الذي كتب به القرآن وانتظم حروفاً ورقومًا، هو بعينه كلام الله تعالى، وصار قديماً بعدما كان حادثا». انظر شرح نظم النورية في التوحيد. الحسين الورثلاني : ص 263.

مردود عند أهل العلم كافَّة، فمن الضّمائر ما يرجع إلى الآيات باعتبار اللّفظ، ومنها ما يرجع إليها باعتبار المعنى. وهذا من الاستخدام». انتهى.

وهو كلام حسن، إلاّ أنّ قوله "صدق إنْ أراد ضدّ الكذب فيخصّ اللّفظ" فيه نظر، فإنّ الخبر النّفساني منه الصّادق والكاذب باعتبار مطابقته للواقع في الخارج وعدمها، ثمّ للصّدق معنًى ثالث؛ وهو الحقّ، فيرجع هذا إلى الثّابت في الرّواية. وإذا قَدَّرتَ "قديمة" وما بعده خبر مدلولها كما قلناه، لم يكن من الاستخدام. ثمّ قال : «وقوله : "المَوصُوف بالقِدَم"؛ إنّما يعني : يُوصف به في اللّفظ خاصة، فيُقال: الله قديم؛ لا في المعنى؛ لأنّ القِدم ليست صفة وجودية لله سبحانه، إلاّ في قول ضعيف مرغوب عنه».

قلتُ : اختلف في القِدم والحدوث والوجوب والإمكان؛ هل هي حقائق ثابتة في نفسها، أو هي أمور اعتباريّة؟ وذهب طائفة كبيرة من المتكلّمين إلى أنّ القِدم صفة نفسية للقديم[1]، لا كما قال : «إنّه مرغوب عنه».

وقوله : "لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ.." البيت؛ تقدّم أنّ فاعل "تَقْتَرِن" ضمير عائد على المبتدأ المُقدَّر، وهو مدلول "آيات"؛ الّذي هو القديم، وإنّما لم تقترن بزمان؛ أيْ لم تصاحبه؛ لأنّ القديم لا أوّل لوجوده، فليس بزمانيّ، إذِ الزّمان حادث؛ لوجوده أوّل. وقوله : "وهي تُخبرنا"؛ تقدّم أيضاً أنّ الضّمير يعود على "آيات"؛ الّتي هي ألفاظٌ دالّة على مدلولٍ قديمٍ، لأنّ الّذي يُخبرنا ونسمعه هي تلك الألفاظ لا مدلولها.

(1) انظر شرح اللقاني على الجوهرة : 323/1.

وقوله : "عن المَعَاد"؛ أيْ تخبرنا بثبوت الرّجوع إليه في الدّار الآخرة بعد موتنا في الدّنيا : ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾[2]. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3]. وهو كثير.

---

(1) سورة المائدة : من الآية 105.

(2) سورة يونس : من الآية 23.

(3) سورة المؤمنون : الآية 16.

[دوام آيات الرّسول عليه السلام على مرّ العصور]

ويحتمل أنْ يكون فاعل "تَقْترن" ضمير "الآيات"؛ الّتي هي الألفاظ، إلاّ أنّ "بزمان" لا يكون للعموم، كما في الوجه الأوّل، بل للخصوص؛ أيْ لم تقترن بزمان ما أخبرت عنه، لا من الماضي؛ كما في الإخبار عن عَادٍ حسبما ورد ذلك في كثير من السّور، وعن إرَم كما ورد في سورة الفجر. ولا من المستقبل؛ كإخبارها عن المَعَاد، وعن مثل قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ..﴾ الآية[1]. وهذا من الدّليل على كونها من عند الله، فإنّ ما أخبرت عنه لم تقارنه : إمّا المستقبل؛ الّذي أخبرت عنه، ثمّ ظهر بعضه موافقاً للأخبار كغَلْب الرّوم فارسَ، فظاهر الدّلالة. وإمّا ما مضى، فالدّلالة فيه : كَوْن الآتي بها لا يقرأ ولا يكتب، ولا كان له ارتحال إلى البلاد، مع غَيْبته عن المعاندين، بحيث يتحصّل له من علوم الماضين ما أخبر عنه ممّا لا يُدرك بعض البعض منه، إلاّ مع العلم الكثير بالتّاريخ، وأمّا ما أتى به منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على نحو ما أتى به، فمُحالٌ أنْ يكون بغير الوحي، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2].

(1) سورة الروم : الآيتان 1 و2. ويقصد الآيات وليس الآية، وهي بتمامها : ﴿الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(2) سورة العنكبوت : الآيتان 48 و49.

ويحتمل أيضاً أنْ يكون ضمير "هي" عائدًا على المعاني القديمة؛ لأنّ الألفاظ الدّالة عليها إذا حصل الإخبار منها، فقد حصل من مدلولها.

وقد يحتمل - على بُعد - أنْ يرجع "قديمة" إلى الألفاظ، ومعنى وصفها بالقِدم؛ أيْ أنّها دائمةً زمانًا متطاولاً، وذلك منذ بَعثه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى زمان النّاظم، وذلك القرن السّابع، لأنّ القديم كما يطلق على ما لا أوّل له، يطلق على ما تطاول زمانه، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾[1]. فيكون هذا المعنى مِن معنى قوله بعدُ : "دامَتْ لَدَيْنا.." البيت؛ أيْ أنّ هذه الآيات لها زمان طويل تُشاهد فيه.

وقوله : "دَامَت.." البيت؛ فاعل "دَامَت" ضمير يعود على "آياتٍ حَقّ"، وهي ألفاظ القرآن الّتي وقع بها الإعجاز، ويعني أنّها باقية لدينا لم تنقرض، فلِذا زادت في الشّرف والرّتبة على كلّ معجزة ظهرت على يد كلّ مَن تقدّم من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فإنّ كلّ معجزة انقرضت بانقراض الآتي بها من الأنبياء عليهم السّلام، بل لم تظهر على أيديهم إلاّ مرّة واحدة في مدّة حياتهم، وذلك حين وقع التحدّي بها، ثمّ لم تظهر بعدُ، وهذا معنى قوله : "فاقَتْ كلَّ مُعْجِزَة مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جاءتْ ولَمْ تَدُمِ"، وإلى هذا أشار - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقوله : «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلاَّ وَقَدْ أُتِيَ مَا آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا، فَأَنَا فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]. يعني أنّ معجزته - صَلَّى

---

(1) سورة يس : من الآية 39.

(2) رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مرفوعا في فضائل القرآن. بَاب كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ.

لأنّ عدم دَوَامها؛ إمّا لأنّها جاءت ولم تَدُم، أو لعدم مجيئها بالكلّية، وعلى هذا التّقدير الثّاني، لا يكون في كلامه مدح، فرفع هذا التوهّم بقوله : "جَاءَت". فليس قوله "مِن النّبيّين"، وقوله : "جَاءَت" من الحَشْو للوزن، كما ظنّ بعضهم.

[آيات القرآن مُحكمات]

وقوله : "مُحْكَمَاتٌ.." البيت؛ الظّاهر أنّ هذا الوصف راجع إلى الألفاظ، والظّاهر في معناها من المعاني المتقدّمة في الغريب أنْ تكون بمعنى مُتقنَات النّظم في غاية البلاغة ونهاية الرّصف، ممّا لا يقْدِر البشر على الإتيان بمثله، فدلّ أنّها مِن عند الله، قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]. ومن أجل ما فيها من الدّلالة الواضحة على أنّها من عند الله، قال النّاظم: "فما يُبقينَ - أيْ تلك الآيات المُحْكَمات - مِن شُبَه"؛ أيْ من التباس لصاحب شقاق؛ وهو الكافر؛ لأنّه مشاقّ للدّين؛ إذ هو في شقّ، والإسلام في شقّ، وإذا كانت لا تبقي شبهة لذي شقاق، فأحرى بها ألاّ تبقيها للمُسالم، فلا يَشكّ في أنّها مِن عند الله، بل يَعلم كونها منه قطعاً، فيُسلِّم عند ذلك إنْ لم يعاند.

وإنْ كان معنى "مُحْكَماتٌ" : ذوات حِكَم، فهنّ أيضًا لا يُبقين شبهًا لذي شقاق أنّهنّ مِن عند الله؛ لأنّ تلك المعاني والفوائد الّتي تَضَمَّنَ، لا يمكن أنْ تكون في كلام البشر، ولِذا كان يُسْلِم كثيرٌ من الكفّار بمجرّد سماع ما يتضمّن المعاني الكثيرة من بعض آيات القرآن في ألفاظ قليلة، كما كان يُسْلِم الكثير أيضاً لِما يُدرك من فصاحة الألفاظ، وهذا الوجه يرجع بالإحْكَام إلى إفادة المعاني، والأوّل يرجع بها إلى فصاحة الألفاظ.

---

(1) سورة البقرة : الآية 23.

وأمّا إنْ قلنا : إنَّ مُحْكَماتٌ بمعنى حَاكِمَات؛ لِما فيهن من الشّواهد الدّالة على أنّها من عند الله، فسببه يرجع إلى كلّ من الأمرَين المتقدّمَين، أو بمعنى أنّها لمّا كانت كلام الله، كان الحُكم بما ورد فيها، لأنّه حُكم الله، ولِذا ورد في الحديث في وصف القرآن العظيم : «**مَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ**»[1]، و«**مَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ**»[2]. وقوله : "فَمَا يُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ"؛ أيْ ما يُبقين في حُكْمهن؛ لظهور عَدله من شُبه لمَن يشاقق ويخالف.

وإنْ قلنا : ممنوعات من التّبديل والتّغيير؛ لِمَا ضَمِن الله من حفظها، فذلك أيضاً آية دالَّة على أنّها من عنده؛ إذْ لو ادّعى أحدٌ في حرفٍ من القرآن - ممّا ثبت تواترًا أنّه منه - كونه ليس منه، لردّ عليه أهل المشارق والمغارب، ولحُكِم بتكفيره، وكذا إنْ ادّعى فيما ليس منه كذلك أنّه منه.

ويمكن أنْ يكون "مُحْكَماتٌ" مِن المُحْكَم الّذي هو الواضح المعنى، مقابل المتشابه؛ أيْ الّذي لم يتّضح معناه؛ إمّا لكون اللّفظ مشتركاً، أو لكونه مجملاً، أو لإيهامه تشبيهًا؛ نحو : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ ﴾[3].

(1) جزء من حديث رواه الترمذي عن عَلِيّ مرفوعا في فضائل القرآن. باب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ. ورواه غيره. والحديث ضعيف.

(2) جزء من حديث رواه الترمذي عن عَلِيّ مرفوعا في فضائل القرآن. باب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ. ورواه غيره. والحديث ضعيف.

(3) سورة الذاريات : من الآية 47.

فإنْ قلتَ : لا يصحّ حمله على هذا المعنى؛ لأنّ ذلك من المنقول بالهمزة[1]، وهذا بالتّضعيف، ولئن سلّمنا تعاقبهما على بعض المذاهب، كما أشرتم إليه في الغريب، لكن ليس آيات القرآن كلّها واضح المعنى؛ لقوله تعالى : ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[2].

---

(1) أي من لفظ "أُحْكِمَتْ"، وذلك في قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. سورة هود : من الآية 1.

(2) سورة آل عمران : من الآية 7.

[غلبة القرآن على سائر الحجج]

وقوله : "مَا حُورِبَت.." البيت؛ الأَوْلى عندي في معنى هذا البيت أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما حاربه أحدٌ - في وقت من الأوقات - في معنى النّبوّة، وخاصمه فيها جحدًا لها، ثمّ حاربه النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالقرآن، إلاّ كان الغلب لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاد أَعْدى الأعادي إليه - الّذي قصد محاربته، من أجل قيام الحجّة عليه بالقرآن - ملقي السَّلَم؛ أيْ ألقى السّلاح، وسلّم للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إمّا بدخوله في الإسلام، وإمّا بترك المحاربة والتمادي على الكفر. كما اتّفق لنصارى نجران، فإنّهم لمّا قدموا على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليحاجّوه في أمر عيسى عليه السّلام، فحاجّهم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمقتضى قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ..﴾ الآية[1]. انقطعوا عن الاحتجاج، إلاّ أنّهم تعنّتوا، ولم يُظهروا التّسليم، فلمّا أمر الله نبيّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بدُعائهم إنْ لم يُسلموا إلى المباهلة، كما قال تعالى : ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ..﴾ الآية[2]. فدعاهم رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى ذلك، فنكصوا وسلّموا

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 59. والآية بتمامها : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(2) سورة آل عمران : من الآية 61. والآية بتمامها : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

وأذعنوا[1]. وكذا اليهود حين سألوه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن المسائل الّتي منها الرّوح، ونزل في ذلك ما نزل من القرآن، سلّموا، إلاّ أنّهم تركوا الجدال، واستمرّوا على كفرهم[2]. ومن المحاجّين مَن هداه الله، فأسلم بعد الغَلَب، ولا يُحصى عددهم، ومنهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه[3].

ومعنى "مِنْ حَرَبٍ"؛ أيْ أنّ قيام الحجّة عليه سَلْبٌ لحجّته منه؛ الّتي هي كسَلْب ماله، بل أقوى، فإنّ في المال قوّة على الأعداء، وذلك في الحجّة أظهر، فهو يخاف على حجّته أنْ تُدْحض، فيفتضح، كما يخاف على ماله، فهو إذا أحسّ بالحَرَب، ألقى السَّلم؛ لئلاّ يفتضح. فـ "مِنْ حَرَبٍ"؛ أيْ من خوفه.

---

(1) انظر خبر نصارى نجران في الروض الأنف. السهيلي : 7/5 وما بعدها.

(2) انظر القصة في الروض الأنف. السهيلي : 128/3 وما بعدها.

(3) وَكَانَ حَبْرًا عَالِمًا، وأما عن قصة إسلامه، فيقول : «لَمّا سَمِعْتُ بِرَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، عَرَفْتُ صِفَتَهُ وَاسْمَهُ وَزَمَانَهُ الّذِي كُنّا نَتَوَكّفُ لَهُ، فَكُنْت مُسِرًا لِذَلِكَ، صَامِتًا عَلَيْهِ، حَتّى قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَدِينَةَ، فَلَمّا نَزَلَ بقُبَاءِ، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، أَقْبَلَ رَجُلٌ حَتّى أَخْبَرَ بِقُدُومِهِ، وَأَنَا فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ لِي أَعَمَلُ فِيهَا، وَعَمّتِي خَالِدَةُ ابْنَةُ الْحَارِثِ تَحْتِي جَالِسَةٌ، فَلَمّا سَمِعْتُ الْخَبَرَ بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَبّرْتُ، فَقَالَتْ لِي عَمّتِي، حَيْنَ سَمِعَتْ تَكْبِيرِي: خَيّبَكَ اللهُ، وَاَللهِ لَوْ كنت سمعتَ بموسى ابن عمران قادما ما زدتَ، قَالَ: فَقُلْت لَهَا : أَيْ عَمّةُ، هُوَ وَاَللهِ أخو موسى ابن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به. قَالَ: فَقَالَتْ : أَيْ ابْنَ أَخِي، أَهُوَ النّبِيّ الّذِي كُنّا نُخْبَرُ أَنّهُ يُبْعَثُ مَعَ نَفْسِ السّاعَةِ؟ قَالَ: فَقُلْت لَهَا: نَعَمْ. قَالَ: فَقَالَتْ: فَذَاكَ إذًا. قَالَ: ثُمّ خَرَجْتُ إلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمْتُ، ثُمّ رَجَعْتُ إلَى أَهْلِ بَيْتِي، فَأَمَرْتُهُمْ فَأَسْلَمُوا». انظر القصة في الروض الأنف. السهيلي : 308/4 و 309.

ورُوي أنّ أعرابيًا أتاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال : يا محمّد، هل أُنْزل عليك مثل ما قلتُ؟ فقال : «**وما قلتَ؟**». فأنشده :

وَحَيّ ذَوِي الأَضْغَانِ تَحيى نُفُوسُهُمْ ... تَحِيَّتُكَ الحُسْنَى فَقَدْ يَرْفَعُ النَّغلْ[1]

وَإِنْ هَتَفُوا بِالقَوْلِ فَاعْفُ تَكَرُّماً ... وَإِنْ خَنَسُوا عَنْكَ الحَدِيثَ فَلاَ تَسَلْ

فَإِنَّ الّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ ... وَإِنَّ الّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَم يُقَلْ

فتلا عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2]، فتشهّد الأعرابي، وأسْلَم : ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[3].[4]

فقوله : "حُورِبَت" على هذا المعنى؛ أيْ حُورِبَت الآتي بها، فأسند المحاربة إلى ما به المحاربة مجازًا. ويحتمل أنْ يكون المعنى : ما عارض أحد هذه الآيات، وقصد أنْ يأتي بمثلها في ظنّه، إلاّ عاد - من سَلْب قدرته على الكلام، وإنْ كان أَعْدَى الأعَادِي - إليها مُلقي السَّلَم.

---

(1) النغل : بفتح النون وسكون الغين؛ ولد الزنية.

(2) سورة فصلت : الآية 34.

(3) سورة الفرقان : من الآية 52.

(4) هذه الأبيات تروى في غير هذه القصة، وذلك أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للعلاء بن يزيد الحضرمي هل تروي من الشعر شيئاً؟ قال: نعم؛ ثم أنشده الأبيات. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أحسنتَ يا علاء، أنت بهذا أحذق منك بغيره، إنّ من الشعر لحكما، وإنّ من البيان لسحرا، فسارت من كلامه مثلا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال المتقي الهندي رواه ابن النجار عن أنس. انظر كنز العمال. المتقي الهندي : 856/3. رقم الحديث : 8951.

[أوجه عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن]

وقولنا "مِنْ سَلب قدرته على الكلام" يتمشّى على مذهب القائلين بالصَّرفَة، وذلك أنّ العلماء اختلفوا في وجه عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن، وإنْ كانت حروفه من جنس الحروف الّتي ينطقون بها، وإلى ذلك الإشارة عند المحقّقين بمثل : ﴿ألم﴾، ﴿ألر﴾، ﴿ألمص﴾؛ أيْ أنّ هذا القرآن مؤلّف مِن مثل هذه الحروف الّتي تألّف منها كلامكم، فاتوا بمثله، وإلاّ فاعلموا أنّه مِن عند الله. فقيل : «إنّ الإتيان به من جنس مقدورهم، إلاّ أنّ الله تعالى صَرَفَهم عن الإتيان بمثله معجزة لنبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». ويعبّرون عن هذا المذهب بمذهب أهل الصِّرْفَة[1]. وقيل : «إنّ الإتيان بمثله ليس مِن جنس مقدورهم، ولا يدخل تحته، لكن لمّا كان الآتي به بشرًا مثلهم، قامت الحجّة عليهم في دعوى الرّسالة، وأنّه من عند الله». والقول الأوّل أُدخل في الإعجاز؛ لأنّ عجزهم - عمّا هو من مقدورهم - أدخل في قيام الحجّة ممّا ليس من جنس مقدورهم.

---

(1) ويعزى هذا المذهب للمعتزلة. قال السيوطي : «قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ (أي الباقلاني) : وَمِمَّا يُبْطِلُ الْقَوْلَ بِالصِّرْفَةِ؛ أَنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْمُعَارَضَةُ مُمْكِنَةً، وَإِنَّمَا مَنَعَ مِنْهَا الصِّرْفَةُ، لَمْ يَكُنِ الْكَلَامُ مُعْجِزًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِالْمَنْعِ مُعْجِزًا، فَلَا يَتَضَمَّنُ الْكَلَامُ فَضِيلَةً عَلَى غَيْرِهِ فِي نفسه». قال : «ليس هَذَا بِأَعْجَبَ مِنْ قَوْلِ فَرِيقٍ مِنْهُمْ : إِنَّ الْكُلَّ قَادِرُونَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَإِنَّمَا تَأَخَّرُوا عَنْهُ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِوَجْهِ تَرْتِيبٍ لَوْ تَعَلَّمُوهُ لَوَصَلُوا إِلَيْهِ بِهِ، وَلَا بِأَعْجَبَ مِنْ قَوْلِ آخَرِينَ : إِنَّ العجز وقع منهم، وأما مَنْ بَعْدَهُمْ فَفِي قُدْرَتِهِ الْإِتْيَانُ بِمِثْلِهِ، وَكُلُّ هَذَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ». انظر الإتقان في علوم القرآن : 8/4.

فإنْ قلتَ : لا يصحّ حمل البيت على هذا المعنى الأخير، وإلاّ كان البيت بعده تكرارًا.

قلتُ : هو كذلك، إلاّ أنْ يُجعل قوله : "رَدَّتْ بلاغَتُها" تفسيرًا لما تضمّنه هذا البيت على هذا الوجه؛ من كون محاربها عاد مسلوباً.

ويحتمل أنْ يكون معنى "من حَرَب"؛ أيْ ما عارض أحدٌ آيات الله بالطّعن فيها، إلاّ كفى الله مؤنته، فرجع من غضب الله عليه – وإن كان من أعدى الأعادي – مُلقِي السَّلَم، تاركاً للحرب؛ إمّا مع الإسلام والتّوبة عمّا قارف؛ لِما رأى من الانتقام، وإمّا مع الذلّ والصَّغار والاستسلام.

وممّا يناسب المعنى الأوّل ما جاء عن عتبة بن ربيعة أنّه كلّم النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فيما جاء به من خلاف قومه، فتلاَ عليه "حم فصّلت" إلى : ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1]. فأمسك عتبة يده على فِي النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وناشده الرّحم أنْ يكفّ. وفي رواية : فجعل النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقرأ وعتبة مصغٍ ملقٍ يديه خلف ظهره، ومعتمد عليهما، حتّى انتهى إلى السّجدة، فسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقام عتبة لا يدري ما يراجعه، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قومه، حتّى أتوه، فاعتذر لهم، وقال : والله لقد كلّمني بكلام، والله ما سمعت أذناي بمثله قطّ، فما دَريت ما أقول له[2].

---

(1) سورة فصلت : من الآية 13.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 275/1.

ومنه أيضاً حكاية الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ حين سمع القرآن، فرقّ، فأنكر عليه أبو جهل، فقال : والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار منّي، والله ما يشبه الّذي يقول شيءً من هذا[1].

وكذا ما ثبت عنه أيضاً حين اجتمع رأي قريش على وصف النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بشيء يتّفقون عليه، فقالوا : نقول كاهن. قال : والله ما هو بِكَاهِنٍ، مَا هُوَ بِزَمْزَمَته وَلَا سَجْعِهِ. قَالُوا: مَجْنُونٌ. قَالَ : مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، ولا بِخَنِقِهِ وَلَا وَسْوَسَتِهِ. قَالُوا : فَنَقُولُ شَاعِرٌ. قَالَ : مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، قَدْ عَرَفْنَا الشّعْرَ كُلّهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ. قَالُوا : سَاحِرٌ. قَالَ : مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، ولا نَفْثِهِ وَلَا عَقْدِهِ. ثمّ قَالَ : أَقْرَبَ ما أنتم قائلون إنّه سِحر، لأنّه يفرّق بَيْنَ الْمَرْءِ وابنه وَأَخِيهِ وَزَوْجَتِهِ. فنزل في الوليد قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا .. ﴾ الآيات[2].[3]

وممّا يناسب المعنى الثّاني : أنّه أيضاً - أعني الوليد - انعزل عن النّاس أيّامًا، فحاول أنْ يصنع شيئاً يعارض به القرآن - وكان مِن أفصح أهل زمانه، وأعرفهم بالأمور - فلم يقضِ شيئاً، فرجع خاسئاً مُلقي السَّلَم.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما : 550/2. رقم الأثر : 3872. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(2) سورة المدثر : الآية 11.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 265/1.

وبهذا يندفع أيضاً ما أُورد مِن أنّ هناك مَن لم يُلقِ السَّلَم حتّى مات كافرًا في بدر وغيرها. فإنّ هذا إنّما عاند الآتي بها أو الدّين، وإنّما الّذي ألقى السَّلَم مَن حاربها، وتعرّض للإتيان بمثلها، وهذا عامٌّ لا تخصيص فيه. وأجاب هو بأنْ قال : "يُحمل هذا العموم على الخصوص". ويقرب ممّا أجبنا به.

في قوله : "دَعنِي" الخطاب العام. وإتيانه بالمفعول معه تنبيه على أنّه لا يريد أنْ يفارق تلك الحالة. وإضافة "الوصف" للاختصاص. وتنكير "آيات" للتّكثير والتّعظيم والنّوعية. وأكّد قوله "ظهرت" بأنواع من التّأكيد؛ بإضافة "ظهور" إلى "نار"، وبإضافة "النّار" إلى "القِرى"، وبوصف هذه النّار بكونها "ليلاً"، وبكونها على "عَلَم"؛ أمّا الأوّل فلأنّ النّار من أظهر الأشياء في حسّ الرّؤية والإحساس، وأمّا إضافتها إلى "القِرى"؛ فلِما تقدّم أنّ شأن الكريم تكبيرها؛ ليقتدي النّاس بها إلى منازلهم. وخفي ذلك على بعضهم فقال : «لا وجه لإضافة "النّار" إلى "القِرى" في إفادة الشّهرة، إلاّ أنْ يريد أنّ الأضياف الّذين أُعِدّت لهم هذه النّار لم يصلوا بعدُ إلى المنزل، وأظلم عليهم اللّيل، فهم يعتدون بها، فلا يبعد أنْ يكون ظهورها لهم أقوى منه لغيرهم؛ لشدّة صرفهم أبصارهم وقلوبهم إليها، وإنْ لم يرد هذا، فلا وجه له إلاّ إقامة الوزن». انتهى. ولا يخفى ضُعفه.

وأمّا وصفها بأنّها في ليل، فذلك أظهر للنّار؛ لظلمة اللّيل، وأمّا كونها على عَلَم؛ فلأنّ رؤية المنير المرتفع أعمّ من رؤية المنخفض، وهو ظاهر، ومن هنا كان البيت مشتملاً على نوع من الإطناب يُسمّى الإيغال، واختلف فيه، فقيل : «يختصّ بالشِّعر»؛

[حقيقة الإيغال]

وهو : «خَتْمُ البَيْتِ بِما يُفيدُ نُكْتَةً؛ يَتمّ المَعنَى بِدُونِها»[1]؛

كزيادة المبالغة في قول الخنساء[2] :

وإنّ صَخراً لَتَأتَمّ الهُداة بِهِ كَأنّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

فقولها : "عَلَمٌ" وما بعده زيادة مبالغة،

وكتحقيق التّشبيه في قول امرئ القيس[3] :

كأنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وأَرْحُلنَا الجِزْعُ الّذي لم يُثَقَّبِ

فقوله "الجِزْعُ" كاف، وما بعده تحقيق للتّشبيه.

وقيل : «يختصّ بالنّظم، ومنه : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[4]؛ فـ "هُمْ مُهْتَدُونَ" زيادة حثّ في اتّباعهم، وإلاّ فمِن لوازم الرّسل الاهتداء»[5].

وهو هنا من الثّاني؛ لأنّ ظهور نار القِرى كافٍ في التّشبيه، فقوله : "على عَلَم" يفيد تحقيق التّشبيه؛ لزيادة الظّهور. ويحتمل أنْ يكون من الأوّل[6]، وإضافة كلّ من "ظهور" و"نار" للاختصاص. و«أل» في "القِرى"

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 189. وسبق تعريفه في شرح قول الناظم: فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًا بَعْدَمَا شَهِدَتْ...

(2) سبق توثيقه.

(3) سبق توثيقه.

(4) سورة يس : الآيتان 20 و21.

(5) انظر الإتقان في علوم القرآن. السيوطي : 250/3.

(6) أي زيادة المبالغة.

وفي قوله : "ما حُورِبَت" مع قوله : "عاد.. أعدى الأعادي" نحوُ تعادل؛ فإنّ بناء "حُورِبَت" يقتضي الاختصار لحذف الفاعل، والتّصريح به مع "صار" يقتضي الإطناب أو المساواة؛ ولأنّ في ذكر الفاعل ثانياً بعد الإياس منه أوّلاً نوع لذّة، لأنّه كحصول نعمة غير مُترقّبة. وفائدة حَذفه مع حارب تحقير لشأن المحارب، وأنّه لا ينبغي أنْ يُوجد، وانتفى ذلك إنْ صار مُلقي السَّلَم، فصرّح به، ويمكن أنْ يكون فائدة حَذْفه أوّلاً العموم؛ لصلاحيته لكلّ مَن تُتصوَّر منه المحاربة، ويؤكّد هذا المعنى إتيانه بـ "قطّ"، وهذا النّوع من القصر قصرُ إفراد؛ لقَطعه الشّركة في الحالة الّتي يصير إليها. وتنكير "حَرَب" للتّعظيم. وتقديم "من حَرَب" على "أعدى الأعادي"؛ للعِلم مِن أوّل الأمر أنّ إلقاءه السَّلَم إنّما كان قهرًا.

اَلْبَيَانُ

التّشبيه في قوله : "ظُهُور نَار.." إلى آخره؛ من تشبيه المفرد بالمفرد، إلاّ أنّه اشتُرِط في المُشبّه به أنْ يكون على صفات.

وقوله : "فالدرّ.." البيت؛ هو أيضاً من الإشارة إلى التّشبيه، وإنْ لم يُصرَّح به، لكنّه أتى به في معرَض الدّليل، وتقريره كما قدّمنا في قوله : "فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنهُمْ.." البيت[1]، وقرّرناه في هذا البيت في التّفسير.

وقوله : "آمال المديح"؛ هو على بعض التّفاسير من الاستعارة بالكناية؛ بأنْ شبّه المديح بإنسان له آمال، ولم يُذكر هو، وإنّما ذُكِرت الآمال الّتي هي من لوازمه، وإسناد "التّطاول" إليها مجازيّ - ولا يبعد تمشيه ذلك في "كرم الأخلاق" - بأنْ تُشبّه بأشخاص بدت أشباحهم، ولم يُذكروا، وذكر من لوازمهم التّطاول، وإنْ كان التّقدير : إلى آثار ما فيه، فهو من مجاز الحذف.

وقوله : "تُخبرنا" من الإسناد المجازيّ؛ لأنّ المُخبِر هو مُنزلها أو تاليها. وقوله : "عن المَعَاد" وما عطف عليه؛ يحتمل الحقيقية والمجاز؛ بحذف شيء - يُضاف إلى كلّ من الأنواع الثّلاثة - يليق به.

وقوله : "مُحْكَمَات" مجاز على بعض الوجوه؛ ككونها بمعنى حَاكِمات، وحقيقة على بعضها. وأمّا الإسناد في "يُبقين" و"يَبغين" فمجازيّ. والإسناد في "حُورِبَت" مجازيّ.

---

(1) هو من قول المتنبي الذي سبق توثيقه، والبيت بتمامه :

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنهُمْ ... فإنّ المسكَ بَعضُ دَمِ الغزالِ

لفظ "الوصف" و"الآيات" و"الظّهور" من مراعاة النّظير، وكذا لفظ "النّار" و"العَلَم"، ولفظهما و"القِرى" و"اللّيل". و"ظهرت" و"ظهور" مِن تجنيس الاشتقاق. وتقدّم أنّ "على عَلَم" من الإيغال .

ولفظ "الدرّ" و"الحسن" و"النّظم" من مراعاة النّظير، وكذا لفظ "النّقص" و"القَدْر". و"يزداد" و"ينقص" من الطّباق، وكذا "منتظم" و"غير منتظم". وأمّا "يزداد حسناً" بكماله مع "ليس ينقص قَدْرًا" بتمامه فليسا من الطّباق؛ إذ ليسا بمتضادَّين، بل متوافقان، فهما من مراعاة النّظير. وقوله : "حسناً"، وهو موازن لقوله : "قَدْرًا غير..". وفي البيت التّسهيم، وهو من الكلام الجامع ومن حسن التّعليل ومن المذهب الكلامي.

ولفظ "آيات " و"حقّ" و"الرّحمن" من مراعاة النّظير، بل ألفاظ البيت كلّها من ذلك. و"مُحدثة" و"قديمة" من المطابقة. ولا يبعد أنْ يكون في هذا البيت والبيتَين بعده الإلغاز[1]، وهو لقب زاده بعضهم في ألقاب البديع[2]، وهو في الأوّلَين أشدّ منه في الثّالث.

وفي قوله : "لم تقترن بزمان.." البيت؛ الطّباق الخفيّ من وجهين :

الأوّل : الإخبار عنها أنّها لم تقترن بزمان مع أنّها تُخبر عن أمور زمانية، فالأوّل نفي للزّمان، والثّاني إثبات له.

---

(1) أَلْغَزَ الكلامَ وأَلْغَزَ فيه : عَمَّى مُرادَه وأَضْمَرَه على خلاف ما أَظهره.

(2) وهو ابن الأثير، ويسمّيه أيضاً المُعمَى. انظر كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 84/3.

وفي البيت الموازنة بين قوله : "فما يُبقين من شُبه" وقوله : "ولا يَبغين من حَكَم". ويقرب "يُبقين" و"يَبغين" من تجنيس التّصحيف، وليس به؛ لمباينة شكل الغين شكل القاف، وهما بالتّحقيق من التّجنيس اللاّحق؛ نحو : ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ... وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾[1]. والبحثان في "يُبقين" و"يُلقين" على تلك الرّواية. وفي نفي الإبقاء عن "الشُّبه" والبغي عن "الحَكَم" نوع من التّقسيم، تقدّم غير مرّة. ولا يبعد أنْ يكون البيت من المذهب الكلامي.

و "حُورِبَت" و"حَرَب" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، وكذا "عاد" و"أعدى". وقوله : "أعدى الأعادي" و"ملقي السّلم" من الطّباق. ولا يبعد أنْ يكون "السّلم" من التّسهيم.

---

(1) سورة غافر : من الآية 75.

الْإِعْرَابُ

دَعْني : فعل أمر، ومفعول، وفاعله ضمير المخاطَب. ووصفي : معطوف على الياء، أو مفعول معه، وعامله على الوجهين "دَعْني" والياء المضاف إليها، و"وصف" هي فاعله. وآيات : مفعوله. وله : صفة "الآيات"، أو متعلّق بـ "ظهرت".

وظهور : مصدر مشبّه به، والعامل فيه "ظهرت"، والأصل : ظهورًا مثل ظهورٍ، فحُذف الموصوف، وأقيمت صفته الّتي هي "مثل" مقامه، ثمّ حُذف، وأُقِيم المضاف إليه مقامه.

وليلاً : ظرف زمان، وعامله "ظهور". وعلى عَلَم : متعلّق به أيضاً لا بـ "ظهرت".

وجملة "ظهرت.." وما تعلّق بها صفة لـ "آيات"، أو مستأنفة كما تقدّم.

والدرّ : مبتدأ، وخبره جملة "يزداد..".

وحسناً : مفعول به، أو تمييز منقول من الفاعل، والأصل : يزداد حسنه، فاتّصل الضّمير بالفعل، فصار فاعلاً، وانتصب "الحسن" على التّمييز؛ لانبهام المميّز، وهو مبتدأ، "منتظم" خبره، والجملة حال من فاعل "يزداد".

واسم "ليس" ضمير "الدرّ"، وكذا فاعل "ينقص" الّذي هو خبرها. ويحتمل كون "ليس" شأنية، وفاعل "ينقص" ضمير "الدرّ"، وهذه الجملة هي المفسّرة لضمير الشّأن، وهي خبر "ليس" أيضاً.

وقَدْرًا : مفعول أو تمييز منقول من الفاعل؛ أيْ قدره، وجملة "ليس.." في موضع رفع عطفاً على "يزداد".

وغير منتظم : حال من فاعل "ينقص".

والفاء الداخلة على "الدرّ" عاطفة جملة الخبر على جملة الإنشاء، والفاء الداخلة على "ما" عاطفة خبرًا على مثله إنْ كانت "ما" نافية، أو إنشاء على خبر إنْ كانت استفهاميّة. وعلى النّفي؛ فـ "تطاول" : فعل ماضٍ، وآمال : فاعله، والمديح : مضاف إليه. وعلى الاستفهام؛ فـ "تطاول" : مصدر مرفوع خبر "ما" الاستفهاميّة، فإنّها مبتدأ، وآمال : مخفوض بالإضافة، ومحلّه الرّفع على الفاعلية بـ "تطاول".

وإلى : متعلّق بـ "تطاول".

وما : موصولة، صلتها "فيه".

ومن كرم : متعلّق بالصّلة. و"من" للبيان، أو للتّبعيض.

وآيات حقّ : إمّا بنصب "آيات" على البَدَل من "آيات" في البيت الأوّل كما تقدّم، أو برفعها إمّا على البَدَل أيضاً على القطع عند مَن أجاز ذلك؛ أيْ: هي آيات، أو مبتدأ محذوف الخبر؛ أيْ من تلك الآيات، أو من آياته آيات حقّ.

ومُحدثة وقديمة : بالنّصب والرّفع على التّبعية لـ "آيات حقّ"، وإنْ جعلته مبتدأ، فـ "مُحدثة" خبرها، وتقدّم أنّ "قديمة" خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ مدلولها.

لأنّا نقول : وكذالك هي آيات نبيّنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ لا بدّ من انقضائها.

فإن قلتَ : لا تنقضي تلاوة القرآن؛ لأنّه يُتلى في الدّار الآخرة.

قلتُ : ومَن يتلوه حال البرزخ، ثمّ في كونه آية في الدّار الآخرة نظر.

وأمّا إنْ عطف "لم تَدُم" على "جاءت"، فيكون المعنى أنّها فاقتها حين لم تَدُم، أو حين جاءت بقيد عدم الدّوام، وذلك لا يستلزم أنْ تكون فائقة لها حالة الوجود، على أنّ مثل هذا البحث يجري مع القول بالحرفية والتّعليل.

ومُحْكَمَات : إمّا خبر آخر لـ "آيات حقّ"، وإمّا لمحذوف؛ أيْ هي مُحْكَمات، وعلى الأوّل إنْ كانت جملة "دامت.." مستأنفة؛ فهي اعتراضية.

وقال بعضهم : «يترجّح الثّاني؛ إذ لا يصحّ جعله نعتاً لـ "آيات حقّ" كالكلمات قبله؛ لأنّ "صفة الموصوف" معرفة، فهو بَدَل منه، ويضعف نعت النّكرة بالنّكرة بعد إبدال المعرفة من المنعوت».

فما : الفاء عاطفة؛ لإفادة سببيّة ما قبلها فيما بعدها. و"ما" نافية.

ويُبقين : فعل مضارع وفاعل؛ هو النّون الّذي هو ضمير "الآيات". مِن شُبه : مفعول بـ "يُبقين". و"مِن" زائدة لاستغرّق النّفي.

ولذي شقاق : يتعلّق بـ "يبقين"، أو صفة هو لـ "شُبه".

ولا : نافية.

ويَبغين من حَكَم : إعرابه كإعراب "يُبقين من شُبه".

[رتبتا الفكر والذكر]

وإنّ مَن حصل له رتبة الفكر والذّكر، جديرٌ بأنْ يُمدح، حتّى يُقال فيه : "فَمَا تَطَاوُلُ آمَالُ المَدِيحِ.." البيت؛ بالاعتبارين في "ما"، وكان ذلك؛ لأنّ عبادَتي الفكر والذّكر من أجلّ العبادات، وقد حضّ الله سبحانه وتعالى على التفكّر في آياته في غير ما آية؛ فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، ومدح المتفكّرين الذّاكرين؛ فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. ﴾ الآيات[2]. والفكرة في أمر الله – تعالى - مفتاح العبادة، وسُئلت أمّ الدّرداء : أَيُّ عِبَادَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أفضل؟ قالت : «التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ»[3].

وقال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ : «لَأَنْ أَقْرَأَ فِي لَيْلَتِي بِإِذَا زُلْزِلَتِ.. حَتَّى أُصْبِحَ، وَالْقَارِعَةُ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِمَا، أَتَرَدَّدُ فِيهِمَا، وَأَتَفَكَّرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهُذَّ الْقُرْآنَ هَذًّا». أو قال : «سورة البقرة»[4].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : «رَكْعَتَانِ مُقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ وَالْقَلْبُ سَاهٍ»[5].

---

(1) سورة الأعراف : من الآية 185.

(2) سورة آل عمران : من الآية 191.

(3) رواه ابن المبارك عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ. انظر الزهد : 97/1. رقم الأثر : 286.

(4) رواه ابن المبارك عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَوْهِبٍ. انظر الزهد : 97/1. رقم الأثر: 287. وفيه : أَوْ قَالَ : «أَنْثُرَهُ نَثْرًا» بدل : أو قال : «سورة البقرة».

(5) رواه ابن المبارك عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَوْهِبٍ. انظر الزهد : 97/1. رقم الأثر: 288.

وأمّا ذكر الله – تعالى – فهو مِن حَمْده، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ»[1]. أو قال : عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وتقدّم بعض القول في فضل الذّكر. وَمنه عَنْ ثَابِتٍ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الحَلَقَة[2]، فَقَالَ : أَلَا تُحَدِّثُونِي عَنْ شَيْءٍ أَسْأَلُكُمْ عَنْهُ؟ أَتَيْتُ عَلَى رَجُلٍ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ مُحَرَّرِينَ. فَرَآهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ، لَيْسَ عِنْدِي مَا أُعْتِقُ، وَلَكِنْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَأَيُّ الْعَمَلَيْنِ أَفْضَلُ فِيمَا تَرَوْنَ؟ فَمَا عَدَلُوا وَمَا مَيَّلُوا أَنْ قالوا : إِنَّ مَنْ قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَفْضَلُ مِمَّا صَنَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ. وذكره ابن المبارك في "**رقائقه**" في باب الاجتهاد والخشوع والعمل[3].

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان : 216/6. رقم الأثر : 4063.

(2) في المطبوع من كتاب الزهد : الصُّفَّةِ بدل الحلقة.

(3) انظر الزهد. ابن المبارك : 63/2. وهو فيه في بَابُ الذَّبِّ عَنْ عِرْضِ الْمُؤْمِنِ. وليس فيه ثمة ترجمة بعنوان باب الاجتهاد والخشوع والعمل في المطبوع منه.

أقول : وإنما فضل الذكر على العمل لصدق النية، ولغلبة السلامة من الرياء.

[فضائل آيات القرآن]

وأمّا قوله : "آيات حقّ" إلى قوله : " ويُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ الماء منْ سَقَم" من الأبيات الّتي لم يتقدّم شرحها بعدُ، فإشارة إلى مرتبة فضيلة آيات القرآن العظيم، وأنّ المعنى : وأنّ من أجلِّ آيات الله الّتي يُتفكّر فيها، ويُنظر فيها بعين البصيرة، ويُداوِم العبد على ذكرها وتلاوتها ليله ونهاره، آيات القرآن الّتي هي آيات حقّ من الرّحمن، وخُصّ الوصف العظيم؛ لأنّ في إنزال القرآن على العباد الرّحمة الكاملة، والنّعمة الشّاملة : ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. وقد قدّمنا أنّ إبليس - لعنه الله تعالى - رنّ عند نزول الفاتحة[2]، وكيف لا يرنّ، وربّ العزّة الكبير المتعال جلّ جلاله يقول في كتابه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ الآيات[3]. والضّمير الفاعل في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾[4] عائد على الأقسام الثّلاثة إنْ شاء الله تعالى بفضله وكرمه. وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[5]. وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : رَأَيتُ رَبّي[6]، فقلتُ : يا رَبِ، مَا أفضلُ مَا تَقرّبَ إليكَ بِهِ المُتقرّبونَ؟ فقالَ سُبحانه

---

(1) سورة لقمان : من الآية 1 إلى الآية 3.

(2) سبق تخريج الأثر.

(3) سورة فاطر : من الآية 32.

(4) سورة فاطر : من الآية 33.

(5) سورة الإسراء : الآية 45.

(6) أي في المنام.

وتَعالى : يَا أَحمدُ، بِكِتَابي. قلتُ : يَا رَبِّ، بِفَهْمٍ، أَو بِغَيرِ فَهْمٍ؟ فَقال : يَا أَحمدُ، بِفَهْمٍ، وبِغَيرِ فَهْمٍ[1].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : «مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا رَجَعَ مِنْ سُوقِهِ - أَوْ مِنْ حَاجَتِهِ - إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ، فَيَكُونَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»[2].

وعَنْ عَبْدِ الله رضي الله عنه[3] : «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ : ألم حَرْفٌ، وَلَكِنِ الْأَلِفُ حَرْفٌ، وَاللَّامُ حَرْفٌ، وَالْمِيمُ حَرْفٌ»[4]. وكان أنس - رضي الله عنه - إذا خَتَمَ القُرآنَ جَمَعَ أَهْلَهُ[5].

وفضائل القرآن أكثر من أنْ تُحصى، وناهيك أنّ مدلوله قديم صفة الموصوف بالقِدَم، وفيه عِلم الأوّلين والآخرين، فلم يقترن مدلوله القديم بزمان، وهو يخبر من عِلم الأوّلين عن عَادٍ وعن إرَم، ومن عِلم الآخرين عن منتهاه، وهو المَعاد، ومن ذلك إخباره عن دوامه لدينا، محفوظا من التّبديل والتّغيير، وهو أعظم دلالة على أنّه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوُجد الخُلْف في خبره، فما أعظمها آية، وأبهرها معجزة في الدّلالة على صحّة نبوّة الآتي بها وصدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

---

(1) انظر إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي : 274/1.

(2) رواه ابن المبارك. انظر الزهد : 278/1. رقم الأثر : 807.

(3) أي عبد الله بن مسعود، وقد سبقت ترجمته.

(4) رواه ابن المبارك. انظر الزهد : 279/1. رقم الأثر : 808.

(5) رواه ابن المبارك. انظر الزهد : 279/1. رقم الأثر : 809.

وَسَلَّمَ، وما أحقّها - من أجل ذلك - أنْ تفوق كلّ معجزة جاءت ولم تَدُم، فإخبارها عن هذه الغيوب من وجه إعجازها، وتحكيمها حتّى لا تبقى شبهة لذي شقاق، ولا يُبتغى حُكْم من غيرها؛ وجه آخر هو لها من ذاتها، وعَوْد محاربها مسلوب الحجّة مُلقي السَّلَم وجه ثالث.

اللّهمّ انفعنا بالآيات البيّنات والذّكر الحكيم، وانفعنا بما علّمتنا منه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ مَن أتاك بقلب سليم. اللّهمّ اجعله حجّة لنا، ولا تجعله حجّة علينا، واجعلنا من أقسام أهله الثّلاثة؛ من السّابقين بالخيرات، بإذنك، وأنجح طُلْبتنا، فإنّه لا يتعاظمك شيء، وأنت الفعّال لما تريد.

[حقيقة البلاغة والفصاحة]

وأمّا عند علماء المعاني فالبلاغة أخصّ من الفصاحة، قال بعض محقّقيهم[1] : «وَلَم أرَ ما يصلح لتعريفهما، لكنّ الفرق بينهما : أنّ الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم، والبلاغة يوصف بها الأخيران فقط، فيُقال : كلمة فصيحة، ولا يُقال : بليغة.

أمّا فصاحة المفرد؛ فخلوصه من تنافر الحروف احترازًا من نحو : مُسْتَشْزِر؛ أيْ مرتفع؛ لتنافر حروفه، ومن الغرابة احترازًا من كون الكلمة لا يُعرف معناها إلاّ بعد البحث الكثير عليه في كتب اللّغة، ومِن مخالفة القياس احترازًا من نحو : الأَجْلَلُ[2]؛ فإنّ قياس اللّغة الإدغام»[3]. وزاد بعضهم[4] : «أنْ لا تكون الكلمة مُستكرهة في السّمع؛ نحو : الجَرْشَى؛ أيْ النّفس»[5]. ولم يرتضِ بعضهم[6] هذه الزّيادة.

وأمّا فصاحة الكلام؛ فخلوصه من ضعف التّأليف احترازًا من نحو: أنْ يتّصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول المتأخّر، وما كان مثله ممّا لا يجوز في العربية إلاّ بضعف، ومن التّنافر بأنْ يعسُر النّطق بكلماته

---

(1) هو جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني.

(2) ومنه قول أبي النّجم بن قُدامة :

الْحَمْدُ لِلّهِ الْعَلِيِّ الأَجْلَلِ أَنتَ مَلِيكُ النَّاسِ ربّاً فَاقْبَلِ

انظر البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني : ص 8. والنقل فيه تصرف.

(3) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : 26/1.

(4) هو ابن الأثير.

(5) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 9.

(6) هو جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني.

وعَارَضْت كتابي بكتابه : قابلته. وعَارَضْت : أخذت في عروض وناحية[1]. والمادة عريضة كثيرة.

والغَيُور : للمذكّر والمؤنّث، وفيه مبالغة من الغَيْرَة بالفتح : مصدر غارَ الرّجل على أهله يَغارُ غَيْراً، وغَيْرَةً، وغاراً. ورجلٌ غيُورٌ وغَيْرانُ، وجمع غيورٍ غُيُرٌ بضمّ الغين والياء، وجمع غَيْرانَ غَيارَى وغُيارَى. ورجلٌ مِغْيارٌ، وقومٌ مَغايِيرُ، وامرأةٌ غَيُورٌ، ونِسْوةٌ غُيُرٌ، وامرأةٌ غَيْرَى، ونِسوةٌ غَيَارَى[2].

اليَد : أصلها يَدْيٌ بسكون الدّال؛ لجمعه على أيْدٍ ويُدِيٍّ؛ كفَلْس وأَفْلُس وفُلُوس. وأَيَادٍ جمع الجمع، وحُذف ياء المنقوص مع الألف واللاّم في نحو الأَيْدِي والمُهْتَدي لغة. وتصغيرها : يُدَيَّة بالتّشديد؛ لاجتماع الياءين. وبعض العرب يقصر اليد[3] - وتحتمل اليد هنا الجارحة والقوّة - وأيَّدَهُ؛ أيْ قوَّاه. وما له بفلان يَدانِ؛ أيْ طاقةٌ. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾[4]. وقوله تعالى : ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[5]؛ أيْ عن ذِلَّةٍ واستسلام[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1082/3. مادة عرض.

(2) انظر هذا كله في الكليات. أبو البقاء الكفومي : ص 349 و350 و351.

(3) أي يقولون لها : يدى.

(4) سورة الذاريات : من الآية 47.

(5) سورة التوبة : من الآية 29.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2539/6. مادة يدى.

وللبيد معان كثيرة، منعنا من استيفائها ما شرطنا؛ مِن أنْ لا نذكر من معنى الكلمة إلاّ ما يناسب المحلّ.

وجَنَى عليه جِنَايَة فهو الجَانِي : فعل به مكروها. والتَجَنِّي : مثل التجرُّم؛ أنْ يَدَّعي عليك ذنباً لم تفعلْه. وفى المثل : "أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا"؛ أيْ الّذين جَنَوا [على][1] هذه الدّار بالهدم هم الّذين كانوا بنوها، حكاه أبو عبيد. قال الجوهري : «وأنا أظنّ أصل المثل : "جُنَاتُهَا بُنَاتُهَا"؛ لأنّ "فَاعِلاً" لا يُجمع على "أَفْعَال"، وأَشْهاد وأَصْحَاب جمع شَهْد وصَحْب، إلاّ أنْ يكون هذا من شواذ الأمثال»[2].

وحُرْمَةُ الرّجل : حَرَمُهُ وأهله. وجمعها حُرُمٌ. والحُرْمَةُ : ما لا يحلُّ انتهاكه. وكذلك المَحْرَمَةُ، بفتح الرّاء وضمّها. وقد تَحَرَّمَ بصُحبته[3].

مَاجَ البحرُ يَموجُ مَوْجاً : اضطربت أَمْوَاجُه. وكذلك النّاس يَمُوجُون[4].

والمَدَدُ : الزّيادة. وأمْدَدْتُ الجيشَ بِمَدَدٍ. والاسْتِمدَادُ : طلب المَدَدِ. أبو زيد : مَدَدْنا القومَ : صرنا مَدَداً لهم، وأَمْدَدْنَاهُم بغيرنا، وأمْدَدْناهُمْ بفاكهة. وأمَدَّ الجرحُ : صارت فيه مِدَّةٌ، والعَرْفَجُ : جرى الماء

---

(1) لفظ "على" سقطت من كل النسخ الخطية التي بحوزتي، ولعلها تكون أيضًا ساقطة من المصدر الّذي نقل منه الإمام ابن مرزوق النص، والإضافة من الصحاح للجوهري.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2305/6. مادة جنى.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1895/5. مادة حرم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 342/1. مادة موج.

في عوده. والمادَّةُ : الزِّيادة المتّصلة. ومَدَّ الله في عمره. ومَدَّهُ في غيّه : أمهله وطَوَّلَ له. ومَدُّ النّهار : ارتفاعه. ومَدّ البصر : مداه. ومَديدُ القامة : طويلها. وطِرافٌ مُمَدَّدٌ : ممدودٌ بالأطناب، شُدّد مبالغة. وتَمَدَّدَ الرّجلُ : تمطَّى[1]. وفروع المادة كثيرة.

فَوْق : ظرف مكان ضدّ تحت؛ أيْ وأعظم من جَوهره. وقوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[2]. قال أبو عبيدة : «فما دونَها». كما إذا قيل: فلان صغير، فتقول : وفَوْق ذلك؛ أيْ أصغر من ذلك. وقال الفَرَّاء : «﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾[3]؛ أيْ أعظم منها. كالذُباب والعنكبوت»[4].

الجَوْهَر، والحُسْن : تقدّما.

والقِيَم : جمع قِيمَة الشّيء؛ أيْ ما يُقَاوِمه؛ كثمن السّلعة، وأصله الواو؛ لأنّه يَقُوم مَقَام الشّيء، فلمّا سُكّنت بعد كسرة أُبدِلت ياءً، فإنْ صُغّرت قلتَ : قُوَيْمَة. ويُقال : قَوَّمْتُ السّلعة. وأهل مكّة يقولون : استَقَمْتُ السّلعة، وهما بمعنًى[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 537/2. مادة مدد.

(2) سورة البقرة : من الآية 26.

(3) سورة البقرة : من الآية 26.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1546/4. مادة فوق.

وقول الفَرَّاء نُقل في المطبوع من الصحاح معزوا لأبي عبيدة معطوفا على قوله الأول، ونصه : «قال أبو عبيدة : فما دونَها، أي أعظم منها، يعني الذُباب والعنكبوت». ويبدو أن هناك سقطا في هذا المطبوع من كتاب الصحاح، وما نقله ابن مرزوق هو الصواب. انظر لسان العرب. ابن منظور : 315/10. تاج العروس. الزبيدي : 320/26.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2016/5. مادة قوم.

ولا تُسامُ : أيْ لا تُطلب أنْ تُوصف بمُلك؛ من السَوْم للبيع، تقول منه : ساوَمْتُهُ سَواماً. واسْتامَ عَلَيَّ، وتَساوَمْت. وسُمْتُكَ بَعيرَكَ سِيمَةً حسنةً. وإنَّه لَغالي السّيمَةِ[1].

وقال بعضهم : «"لا تُسَامُ"؛ أيْ لا تُمَلّ بمَلَل. فـ "بالسَّأَمِ" كالمصدر المؤكّد، وأصله لا تُسْأَم، بسكون السّين، وفتح الهمزة، فخُفّف الهمزة بنقل حركتها إلى السّين السّاكنة، ثمّ في مثله بعد النّقل لغتان؛ إمّا بقاء الألف كما فعل النّاظم، وإمّا حذفها، وهو الأشهر، وإنّما خالفها النّاظم للوزن».

قلتُ : ولا يخفى تكلّف هذا الشّرح.

وقوله : "**عَلى الإكثار**" : يحتمل أنْ يريد : على الإكثار من تردادها، ويحتمل أنْ يريد على إكثار ما جاءت به من المعاني، أو على إكثار ما ورد فيها من التّكرار، لا سِيَّما تكرار القصص، والشّأن فيما أُكثر من الحديث - غير القرآن - أنْ يُملّ.

وبالجملة فهو من قولهم : أَكْثَرَ الرّجل؛ أيْ كَثُرَ مالهُ. وكاثَرْناهُمْ فَكَثَرْناهُمْ : غلبناهم بالكَثْرَةِ. وهي نقيض القلّة. وكَسْر كافها لغة رديّة، وكَثُرَ فهو كَثيرٌ. وقومٌ كَثِيرٌ، وكَثِيرُونَ، واسْتَكْثَرْتُ منه؛ أيْ أكْثَرتُ. والكُثْرُ والقُلُّ بالضمّ والكسر. ويَتَكَثَّرُ بمال غيره. وهو مَكْثورٌ عليه؛ إذا نَفِذَ ما عنده وكَثُرَتْ عليه الحقوق. والكَوْثر

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1955/5. مادة سوم.

قال[1] :

رِدِى رِدِى وِرْدَ قطاة صمّاء   كُدْرِيَّةٍ أعجبها بَرْدُ المَاء

وقيل : «الوُرُودُ المصدر، والوِرْد وقته[2]».

«والوِرْدُ أيضاً : الوُرَّادُ الّذين يرِدُون الماء، وكذلك الإبل»[3]. وله معانٍ أخر.

الشَّبِم بكسر الباء : البارد. وشَبِمَ الماءُ – بالكسر – فهو شَبِمٌ. والشَبِمُ أيضاً : الّذي يجد البرد مع الجوع. والشَبَمُ بفتح الباء : البرد؛ يُقال: غداةٌ ذات شبَمٍ[4].

الحَوْض : واحد الأَحْواض والحِياضِ. وحَضْتُ أَحُوضُ : اتّخذت حَوْضاً. واسْتَحْوَضَ الماء : اجتمع. والمُحَوَّضُ بالتّشديد : شيء كالحَوْضِ يُجعل للنّخلة تَشرب منه؛ ومنه : أُحَوِّضُ ذلك الأمر؛ أيْ أدور حوله، كأُحَوِّطُ[5].

والعُصَاة : جمع عاصٍ؛ ضدّ المطيع. وتقدّمت المادّة.

---

(1) أنشده الأصمعي لبعض العرب، وهو بلا نسبة في لسان العرب : 456/3. والكدرية : ضرب من القطا قصار الأذناب، والقطا : ثلاثة أضرب، كدري وجوني، وغطاط.

(2) في لسان العرب : والوِرْدُ: وقتُ يوم الوِرْدِ بَيْنَ الظِّمْأَيْنِ. انظر لسان العرب. ابن منظور : 456/3.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 549/2. مادة ورد.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1958/5. مادة شبم.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1073/3. مادة حوض.

وَ**الحُمَم** بضمّ الحاء : الفَحْم، وكلّ ما احترق بالنّار، الواحدة حُمَمَةٌ. وحَمَّتِ الجَمْرَةُ تَحَمُّ بالفتح : صارت حُمَمَةً[1].

الصّراط والسّراط والزّراط : الطّريق.

والصّرَاطُ : الجسر الّذي يُضرب بين ظهراني جهنّم يوم القيامة لجواز الخَلْق عليه، فيه خطاطيف وكلاليب مثل شوك السَّعدان، فيمرّ عليه بعضٌ كالبرق، وبعضٌ كالرّيح، وكالطّير، وكأجاويد الخَيل والرِّكاب، فمنهم ناجٍ مُسلَّم، ومخدوش مُرْسل، ومُكَرْدَس في نار جهنّم[2].

ويُقال : إنّ السّراط مشتقّ من السّرط، وهو الابتلاع، يُقال : سَرِطْتُه – بالكسر – أَسْرَطُهُ سَرَطاً : بَلِعته. واسْتَرَطَهُ : ابْتَلَعَهُ. لأنّ الطّريق يبتلع السّائر فيه. وفي المثل : "لا تَكُنْ حُلواً فتُسْتَرَطَ، ولا مُرّاً فتُعْقَى"؛ مِن أَعْقَيْتُ الشّيءَ؛ إذا أزلته مِن فيك لمرارته؛ كأَشْكَيْته: أزلته عما يشكوه. وقالوا : "الأَخْذُ سُرَّيْطَى والقضاءُ ضُرَّيْطَى"؛ أيْ يسترط ما يأخذ من الدّين، فإذا تقاضاه صاحبه أَضْرَطَ به. وحكى يعقوب : "الأخذ سُرّيْطٌ والقضاء ضُرّيْطٌ"[3].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1904/5. مادة حمم.

(2) انظر الحديث بهذا اللفظ أو قريب منه في المستدرك. الحاكم. في العلم. الحديث رقم 8736. وأصله في الصحاح.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1130/3. مادة سرط.

والمِيزَانُ : الّذي تُوزن به صحائف أعمال العباد يوم القيامة، وهو أيضاً الآلة المعروفة.

وأصله مِوْزَان، فقُلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها، وقام مِيزَانُ النّهار : انتصفَ. ووَزَنْتُه وَزْناً وزِنَةً. ووَزَنْتُه ووَزَنْتُ له. ويَزِنُ درهماً. ودرهمُ وازِنٌ. ووَازَنْتُ بينهما مُوازَنَةً ووِزَاناً. ويَزِنُه ويُوازِنُه؛ إنْ كان على زِنَتِهِ أو محاذيه. ووَزِينُ الرّأي؛ أيْ رَزِينُهُ[1].

والمَعْدِلة بكسر الدّال وفتحها : العَدْل ضدّ الجَور، وهو مِن أهل المَعْدَلَةِ؛ أيْ أهل العَدْلِ. وتقدّم.

والقِسْط بكسر القاف : العَدْل، وبفتحها الجَور. تقول : أمر الله بالقِسْط، ونهى عن القَسْط. وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً وقَسْطا : جار. ومنه : ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾[2]. وأقْسَطَ فهو مُقْسِطٌ : عَدَل؛ ومنه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3]. والقِسْطُ أيضاً : مكيال معروف؛ نصف صاعٍ. والفرق : ستّة أقساط. والقِسْطُ أيضاً : النّصيب والحِصَّةُ؛ يُقال : تَقَسَّطْنَاهُ بيننا. وهو بضمّ القاف : من عقاقير البحر، وبفتحه وفتح السّين : انتصابٌ في رِجل الدابَّة، وهو عيبٌ[4].

وقَامَ العَدل في النّاس : ظهر وفَشَا. وقد تقدّم.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2213/6. مادة وزن.

(2) سورة الجن : من الآية 15.

(3) سورة المائدة : من الآية 42.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1152/3. مادة قسط.

ركبتها على مَجْهُولِها. والجَاهِلِيَّةِ الجَهْلاءِ، اشتُقَ للأوّل من اسمه ما يُؤكِّدُه؛ كيوم أَيْوَمْ[1].

وعَيْن : أيْ ذات.

والحَاذِق : اسم فاعل من حَذِقَ الرّجل عملَه – بالكسر - حَذْقاً وحَذاقَةً؛ أيْ أحكمه. والحَاذِقُ : الماهر؛ بذال معجمة. وحَذَقَ الصبيّ القرآنَ والعملَ، يَحْذِقُ حَذْقاً وحِذْقاً وحَذَاقَةً وحِذَاقاً : مَهَر فيه. وحَذِقَ بالكسر لغة. ويوم خَتْم القرآن يُقال له : يوم حِذَاقَة. وفلانٌ في صنعته حَاذِقٌ باذِقٌ؛ إتباعٌ. وحَذَقْتُ الحبلَ أَحْذِقُهُ حَذْقاً : قطعته. والحَاذِقُ : القاطعُ. وحَذَقَ الخَلُّ يَحْذِقُ حُذُوقاً : حَمُض. وحَذَقَ فاهُ الخَلُّ : حَمَزَهُ. والحَذِيقُ : المقطوعُ. والحُذَاقِيُّ : الفصيحُ اللّسان البيِّنُ اللَهجةِ، وحَذْلَقَ الرّجل بزيادة اللاّم، وتَحَذْلَقَ؛ إذا أظهر الحَذْق، وادّعى أكثر ممّا عنده[2].

والفَهِم بكسر الهاء اسم فاعل من فَهِمْت الشّيء – بالكسر – أَفْهَم: أيْ علِمت. فَهْماً وفَهَامِيَةً. واسْتَفْهَمَنِي الشّيء فأفْهَمْتُهُ، وفَهَّمْتُهُ تَفْهِيماً. وتَفَهَّمَ الكلامَ : فَهِمَهُ شيئاً بعد شيء[3].

والضّوء : الضّياء. وتقدّم القول في حقيقته عند قوله : "يُظْهِرْنَ أَنْوَارهَا". وكذلك الضُوءُ بالضمّ. تقول : ضاءَتِ النّارُ تَضُوءُ ضَوْءاً وضُوءًا، وأَضَاءَت مثلُهُ، وأَضَاءَتْهُ النّار أيضاً، يَتَعَدَّى ولا يَتَعَدَّى[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1663/4. مادة جهل.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1456/4. مادة حذق.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2005/5. مادة فهم.

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 60/1. مادة ضوأ.

التَّفْسِيْرُ

[بلاغة آيات القرآن]

"رَدَّتْ بَلاَغَتُها.." البيت؛ يعني أنّ آيات القرآن المذكورة هي في الطّرف الأعلى من البلاغة؛ لأنّ البلاغة لها طرفان : أعلى؛ وهو حدّ الإعجاز، وأسفل؛ وهو إذا ما غيّر عمّا هو عليه إلى ما دونه اِلْتَحَق عند البلغاء بأصوات الحيوانات، ولمّا كانت آيات القرآن العظيم في الطّرف الأعلى، وعجز الخلائق عن معارضتها، وعن الإتيان بمثلها، لا جرم ردّت بلاغتها؛ أيْ صرفت وأبطلت دعوى مَن ادّعى معارضتها ردًا عنيفاً بأقصى ما يكون من الطّرد والإبعاد، مثل ردّ الغيور على النّساء يد الجاني عن نسائه الحُرم، فإنّ كونه غيورًا يقتضي أنْ لا يسامح في ترك الجُناة لالتماس النّساء، وإنْ لم يكنّ من محارمه، بل يردّ أيديهم عنهنّ بمقتضى طبعه، فكيف بردّه يد الجاني عن حُرمه هو خصوصاً.

وقوله : "رَدَّتْ.. دَعْوَى المُعارِض" أبلغ ممّا لو قال : ردّت دليل دعواه؛ فإنّ إبطال المدلول الّذي هو الدّعوى، إبطال لكلّ دليل يدلّ عليه، وأمّا إبطال الدّليل المخصوص، فلا يلزم منه إبطال المدلول. نعم؛ يلزم ذلك إذا تُصوّر أنْ يبطل كلّ دليل يستدلّ به على المدلول، لكنّه بعيد أو محال عادة. وكأنّ هذا البيت فيه ترقّ عن البيت الّذي قبله، فإنّ الّذي قبله أثبت فيه أنّ لها محارباً، لكنّه يعود بعد محاربتها مُلقي السَّلَم، وهذا أخبر فيه أنّه ليس لمحاربها ومعارضها إلاّ الدّعوى، وأنّها تردّ تلك

الدّعوى الردّ المخصوص، فهذا البيت أبلغ، وبهذا تعلم بطلان ما ظُنَّ مِن أنّ البيت السّابق كالنّقض التّفصيليّ في صناعة الجَدَل، وهذا كالإجماليّ، فإنّه يوجب كون هذا من التدلّي، وأنّ الأوّل أبلغ؛ لأنّ النّقض التّفصيليّ أبلغ وأقوى من الإجماليّ[1].

---

(1) قال الجرجاني : النقض : لغةً: هو الكسر، وفي الاصطلاح : هو بيان تخلف الحكم المدعى ثبوته أو نفيه عن دليل المعلل الدال عليه في بعض من الصور؛ فإن وقع بمنع شيء من مقدمات الدليل على الإجمال، سمي نقضًا إجماليًا؛ لأن حاصله يرجع إلى منع شيء من مقدمات الدليل على الإجمال، وإن وقع بالمنع المجرد، أو مع السند سُمِّي نقضًا تفصيليًا؛ لأنّه منع مقدمة معينة. انظر التعريفات. الجرجاني : ص 245.

[وجوه إعجاز القرآن]

واعلم أنّ وجوه إعجاز القرآن لا تنحصر، لكن قال بعض المحصّلين : إنّ تحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

الأوّل : حسن تأليفه، والتآم كَلِمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته، ولم يزل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطب فرسان البلغاء من العرب الّذين ملكوا قِياد الكلام، ويتلو عليهم قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[1] إلى قوله : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾[2]. وجميعهم سُلِب ما أَلِف من فصاحة الكلام، وألقَى يد الضّراعة والاستسلام، حتّى قال زعيمهم فصاحةً الوليد بن المغيرة حين سمع النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقرأ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ..﴾ الآية[3] : والله، إنّ لَه لَحلاَوَة، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً، وإنّ أَسْفَلَهُ لمُغْدِقٌ، وإنّ أَعْلاَهُ لَمُثْمِرٌ.. مَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ[4].

---

(1) سورة البقرة : من الآية 23.

(2) سورة البقرة : من الآية 24.

(3) سورة النحل : من الآية 90. والآية بتمامها : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

(4) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس : 550/2. رقم الأثر : 3872. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الثّاني : صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، فحارت فيه عقولهم، وتدلّهت أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شِعر. كما قدّمنا في حكايتَي الوليد وعتبة.

الثّالث : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع، فوُجد كما ورد على الوجه الّذي أخبر، نحو : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [1]. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [2]. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [3].قَالَ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [4].﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [5]. وهو كثير.

الرّابع : ما أخبر عن القرون الماضية والأمم السّالفة والشّرائع الدّاثرة، ممّا لا يعلم منه القصّة الواحدة إلاّ الفذّ مِن أحبار أهل الكتاب؛ الّذي قطع عمره في تعلّم ذلك، فيورده النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجهه، ويأتي به على نصّه، وقد علموا أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب[6].

---

(1) سورة الفتح : من الآية 27.

(2) سورة الروم : من الآية 3.

(3) سورة التوبة : من الآية 33.

(4) سورة النور : من الآية 55.

(5) سورة النصر : من الآية 1.

(6) انظر وجوه إعجاز القرآن الكريم في الشفا. القاضي عياض : 258/1 وما بعدها.

فهذه أنواع وجوه الإعجاز، وأشخاصها لا تنحصر، بل ينضاف إلى هذه الأنواع أنواع كثيرة، فكتاب الله العزيز في فصاحته قد قرع العقول ببديع نظمه، وفي بلاغته قد أصاب المعاني بصائب سهمه، فإنّه حجّة الله الواضحة، ومحجّته اللاّئحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقيّ إلاّ تهافَتَ تهافُت الفراش في الشّهاب، وذَلّ ذُلّ النّقد[1] حول اللّيوث الغضاب.

---

(1) يضرب بها المثل فيقال : أذل من النّقد؛ وهى صغار الغنم.

[قيمة معاني آيات القرآن]

وقوله : "لها مَعَانٍ.." البيت؛ أيْ لتلك الآيات معانٍ كثيرة لا نهاية لها، كائنة في كثرتها وإمداد بعضها بعضاً، فإنّه ما مِن معنىً يُدرك من معاني القرآن، إلاّ ووراءه معنىً آخر لا إلى نهاية، فهي في ذلك من حيث الصّورة كإمداد موج البحر بعضه بعضاً؛ إذْ ما مِن موجة إلاّ وتأتي بعدها أخرى، وإنْ كان هذا في البحر ينتهي بتفجيره يوم القيامة، وهو في معاني القرآن لا يبيد، وتلك المعاني أيضاً من حسنها البديع وقيمها - أيْ ما لها من القَدْر والشّرف - فائقة في الأمرَين حُسن جوهر البحر، وهو الدرّ المستخرج منه، وفوق قيمه؛ أيْ ماله من القيمة والقَدْر.

فإنْ قلتَ : جَعْلُه قيمة معاني القرآن فوق قيمة الجوهر، كيف يستقيم؟ ومعانيه قديمة لا تُوصف بأنّ لها قيمة.

قلتُ : قد قلنا : إنّ معنى قيمتها، ما لها من الشّرف والقَدْر وعلوّ المنزلة، وأطلق القيمة عليها مجازًا؛ لأنّ القيمة في المقوّم هي : مِقداره، وإذا كان معناها علوّ القَدْر، فلا نسلّم امتناع وصف القديم بعلوّ القَدْر؛ قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[1]؛ أيْ عظمته. وأيضاً فإنّه قال : "فوق جوهره في كذا"، فيكون الحسن والقِيم للجوهر، وتبقى الفوقية للشّرف المطلق، وهو لم يقيّده بغاية؛ إذ ما من منزلة من منازل الفوقية، إلاّ ويصلح لها لفظه، فلا حصر فيه. ولئن سُلِّم امتناع وصف القديم بالقيمة حقيقة أو مجازًا، لكنّ معاني القرآن لفظ مشترك؛ تُطلق ويراد بها

---

(1) سورة الجن : من الآية 3.

إخباراته وإنشاءاته النّفسية الّتي دلّت عليها الإخبارات والإنشاءات اللّفظية، وهذه النّفسية هي القديمة القائمة بذاته تعالى وجلّ، وهذه هي الّتي يُقال فيها لا قيمة لها. وتُطلق المعاني أيضاً، ويُراد بها متعلّقات الإخبارات والإنشاءات من الأشياء المُخبَر عنها، والأفعال الّتي هي التّكاليف، والفاعلين الّذين هم المكلّفون، ونحو ذلك، ويُراد بالمعاني أيضاً ما يُفهم مِن تراكيب ألفاظه من هذه المتعلّقات، والفوائد المستنبطة من ألفاظه، وهذان القسمان الأخيران يُقال فيهما : إنّ لهما قيمة، وإنْ لم يعَبِّر الوصف عن تلك القيمة، وهما اللّذان عنى النّاظم.

وأجاب بعضهم : «بأنّ قوله : "فوق" خبر مبتدأ مُضمر». أيْ : وهي مرتفعة فوق.

قال : «وهذا الضّمير المبتدأ عائد على الضّمير المجرور في قوله : "لها"، أو على الخطوط الّتي تُكتب بها الألفاظ؛ إذِ القيمة إنّما هي للألفاظ الحادثة، كمَن استأجر قارئًا يقرأ، أو للخطوط الحادثة المرسومة، وإذا أُعيد على الخطوط، كان من الاستخدام؛ لأنّ الآيات مشترك بين الألفاظ - وعليها يعود ضمير "لها" - وبين الخطوط، وعليها يعود ضمير "هي" المحذوف». انتهى.

قلتُ : قوله أوّلاً : "عائد على الضّمير المجرور"؛ فيه قلقٌ، بل الصّواب على ما عاد عليه الضّمير المجرور. ووصفه الألفاظ والخطوط بالحادثة وصف تأكيديّ. وقوله "القيمة للألفاظ والخطوط"؛ إنْ كان أراد من حيث كونها ألفاظاً وخطوطاً، لم يكن فيه مدح للآيات، بل للألفاظ والخطوط، ثمّ قد لا تكون لها قيمة من حيث هي ألفاظ، كأنْ يكون

الصّوت ليس بحسن، والخطّ ليس بمستقيم، وإنْ كان أراد من حيث أنّها ألفاظ أو خطوط دالة على القرآن، فإنْ كانت لها قيمة، فإنّما هي من حيث مدلولها، فيعود السّؤال، فالجواب ما ذكرناه.

وممّا يناسب هذا البيت من الأحاديث ما رُوي أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : «**أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِبَهُ**»[1]. وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في وصفه أيضاً : «**لاَ يُعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ**» الحديث[2]. وسيأتي إن الله تعالى.

ومن الآثار : قول ابن مسعود رضي الله عنه : «مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ[3]»[4].

وعن عليّ رضي الله عنه : «لَو شِئْتُ لَأَوْقَرتُ سَبعِينَ بَعيرًا مِنْ تَفْسيرِ فَاتِحةِ الكِتابِ»[5].

وحكى أبو طالب مكيّ[1] في "**قوت القلوب**"[2] عن بعض العلماء أنّه قال : «لِكلِّ آيةٍ سِتُّونَ أَلف فَهْمٍ، وَمَا بَقيَ مِنْ فَهمِهَا أَكْثَر»[3].

---

(1) رواه البيهقي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في شعب الإيمان : 546/3. رقم الأثر : 2092. ورواه غيره. والحديث سنده ضعيف.

(2) رواه الحاكم في المستدرك عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ مرفوعا : 741/1. رقم الحديث : 2040. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه غيره.

(3) فليُثوّر القرآن : أي ليُنقّر عنه ويُفكّر في معانيه وتفسيره وقراءته.

(4) رواه البيهقي في الكبير : 135/9. رقم الأثر : 8664.

(5) أورده الغزالي في الإحياء، ولم يعلق عليه العراقي، ولم أقف عليه مسندا. انظر إحياء علوم الدين. الغزالي : 283/1.

وتقدّم في الغريب أنّ بعضهم جعل "تُسَام" مخفّفا مِن تُسْأَم، ومعناه عنده : ولا تُمَلّ بمَلَل. قال : «وإنّما أدخل الباء في المصدر المذكور للوزن، ولذا عرّفه، وإلاّ فحقّ المصدر المؤكِّد التّكثير». انتهى.

والضّمير المضاف إليه "عَجَائِب"، والمرفوع بـ "تُسَام" يحتمل عَوْدهما على "المعاني" كما تقدّم، ويحتمل عَوْدهما على "آيات حقّ"، وهي الألفاظ.

قوله : "قَرَّتْ بها.." البيت؛ أيْ سُرّت بهذه الآيات عينُ قارئها، أو بردت بدمعة الفرح، ولم تسخن بدمعة الحزن، أو سكنت حسبما تقدّم من المعاني في قَرَّت. وكذا أيضاً تاليها إنْ كان "قاريها" مِن قَرَوْت، فإنّه يحتمل أنْ يكون معناه؛ إمّا قارئها أو متّبع ما فيها كما تقدّم، إلاّ أنّه إنْ كان المراد القارئ، ترجّح عَوْد ما أُضيف إليه على "الآيات"؛ الّتي هي الألفاظ، وإنْ كان المراد المتّبع، ترجّح عَوْده على "المعاني".

وقوله : "فَقُلتُ لَه.." إلى آخره؛ أيْ لمّا قرّت عينه بقراءة ألفاظها، أو باتّباع معانيها، قلتُ له حينئذٍ : لقد ظَفِرتَ أيّها القارئ بحبل الله؛ أيْ بعهده الّذي بينه وبين خَلْقه، فاعتصمْ به؛ أيْ امتنعْ ببركة قراءته من عذاب الله، أو امتنعْ باتّباع أوامره واجتناب نواهيه من الوقوع في المخالفة المؤدّية إلى عقاب الله تعالى. نعوذ بالله من مخالفته ومن عقابه.

قال بعضهم : «إنْ كانت التّاء في "فقلتُ" مضمومة للمتكلّم، فهو يقتضي أنّ النّاظم رأى قارئًا للقرآن قرّت عينه، فقال له ذلك، وإلاّ كان الكلام كذبًا، إلاّ أنْ يُقال : لمّا كان مادحاً للآيات، كان في

صورة المحرّض على الاعتصام بها، فصار لذلك كأنّه قائلٌ، فيكون في الكلام مجازٌ. وإنْ كانت التّاء مفتوحة للمخاطَب، فوجه المجاز فيه؛ أنْ يكون من الخبر المراد به الأمر؛ أيْ فقلْ له؛ نحو: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ ﴾[1]؛ أيْ أَرضِعَن».

قلتُ: والوجه الأوّل هو مَهْيَعُ الكلام[2].

وممّا يناسب معنى هذا البيت والّذي قبله من الأحاديث ما خرّجه أبو عيسى عن الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ[3] قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ! قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**». فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ، قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الحكم أو الْهُدَى فِي غَيْرِهِ، أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا**

---

(1) سورة البقرة: من الآية 233.

(2) أي بيّن الكلام.

(3) هو الحارث بن عبد الله الأعور الهمداني الخارفي أبو زهير الكوفي، ويقال الحارث بن عبيد الله، ويُقال الحوتي، روى عن عليّ بن أبي طالب وابن مسعود وزيد بن ثابت وغيرهم. انظر تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني 145/2.

أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قَالَ مُعَاوِيَةُ[1] : بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ[2].

وكما أنّه نجاةٌ من عذاب الآخرة، كذلك هو نجاةٌ من عذاب الدّنيا وفتنتها، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة حين أخبره بما يكون من الفتن، وقال له : يا رسول الله، فما أصنعُ إن أدركتُ ذلك؟ فقال : «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ عزّ وجلّ، وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَهُوَ الْمَخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ**». قال : فأعدتُ عليه، فقال : «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ، وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَفِيهِ النَّجَاةُ. ثلاثا**»[3].

ورُوينا في صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**[4]، **وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ؛ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ،**

---

(1) هو معاوية بن سلام بن أبى سلام : ممطور، الحبشى، أبو سلام الدمشقى (وكان يسكن حمص). من كبار أتباع التابعين. توفي سنة 170هـ تقريبا. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 518/4.

(2) انظر صحيح مسلم في صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا. بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ.

(3) رواه الحاكم في المستدرك : 478/4. رقم الحديث : 8330. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. ورواه غيره.

(4) في المطبوع من صحيح مسلم: "سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ".

لَيسَ ذَاكَ إِلَيْكَ..» الحديث[1]. ولئن سُلِّم أنّه لا يختصّ بهم، فتقديمهم في ذلك نوع من الاختصاص، بل لو قيل : إنّ الجنّة والنّار والصّراط والميزان والدّنيا والآخرة بأجمعهما من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكان حقًّا.

(1) رواه مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ في الإيمان. بَاب أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا. ورواه غيره.

[أحاديث الحوض]

وممّا جاء في حوضه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما رويناه في صحيح البخاري عن ابن [عمرو][1] : قال النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ؛ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْه، لَا يَظْمَأُ أَبَدًا**»[2].

وفيه عن أنس أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : «**إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنْ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنْ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**»[3]. وفيه عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ[4] - رضي الله عنه - قال : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ**».

قال النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ[5] : وزاد فيها أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ : «**فَأَقُولُ : إِنَّهُمْ مِنِّي!**». فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ :

---

(1) في جميع النّسخ المخطوطة : ابن عمر. والتصحيح من صحيح البخاري وغيره.

(2) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب فِي الْحَوْضِ.

(3) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب فِي الْحَوْضِ.

(4) هو سهل بن سعد الخزرجي الانصاري، من بني ساعدة (..- 91هـ =..- 710م). صحابي، من مشاهيرهم. من أهل المدينة. عاش نحو مئة سنة. انظر الأعلام. الزركلي : 143/3.

(5) هو النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، أَبُو سَلَمَةَ الأَنْصَارِيُّ الزُّرَقِيُّ الْمَدَنِيُّ. فَاضِلٌ نَبِيلٌ. رَوَى عَنْ : أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَجَابِرٍ، وَخَوْلَةَ بِنْتِ ثامر. رَوَى عَنْهُ : سُهَيْلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ وغيره. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 1181/2.

«**سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي**». وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : سُحْقًا : بُعْدًا، سَحِيقٌ : بَعِيدٌ، سَحَقَهُ وَأَسْحَقَهُ : أَبْعَدَهُ[1].

وفيه أيضاً عن أنس عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِيبُهُ - أَوْ طِينُهُ - مِسْكٌ أَذْفَرُ**». شَكَّ هُدْبَةُ[2].[3]

قلتُ : ولعلّ هذا النّهر هو الحوض ونهر الحياة، والله تعالى أعلم.

وأحاديث الحوض كثيرة، رزقنا الله الورود منه، ولا جعلنا ممّن يُرَدّ عنه، بمنّه وفضله.

وأمّا ما أشار إليه بقوله : "تَبيَضّ الوُجُوهُ بِه مِنَ العُصَاة وَقَد جَاءُوهُ كَالحُمَمِ"، فهو ثابت في أحاديث الشّفاعة من صحيح مسلم وغيرها؛ من ذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «**يُدْخِلُ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ : انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا؛ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ**

---

(1) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب فِي الْحَوْضِ.

(2) هو هدبة بن خالد بن الأسود بْن هدْبة، أَبُو خَالِد القَيْسيّ الثَّوْبانيّ الْبَصْريُّ، ويقال له : هداب. سَمِعَ مِنْ : الحمّادين، وهَمّام بْن يحيى، وجرير بْن حازم، وغيرهم. وَروى عَنْهُ : البخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم. وَمَات سنة 235ه. انظر تاريخ الإسلام. الذهبي : 956/5.

(3) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب فِي الْحَوْضِ.

قلتُ : إنْ صحّ تعدّد الحوض فـ «أل» للعهد؛ أيْ حوضه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على ما تقدّم من رجوعه بالتّأويل إلى نهر الحياة، أو المراد الحوض لغة، أو الكلُّ من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن بركة وُجوده كما تقدّم، أو يجوز أنْ تَسْودّ وجوههم قبل دخول جهنّم : ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ..﴾ الآية[1].

وأمّا أنّ ورود حوضه قبل الحساب، فهذا ممّا اضطُرب فيه، قال أبو الفضل عياض رحمه الله : «ظاهره أنّ الشّرب منه بعد الحساب والنّجاة مِن النّار؛ لقوله : "لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا". وقيل : لا يشرب منه إلاّ مَن لم يُقدَّر عليه بالنّار. وقد يحتمل أنّ مَن يشرب منه مِن هذه الأمّة، ثمّ قَدِّر عليه بالنّار؛ أنّه لا يُعذّب فيها بالظّمأ، بل يعذّب بغيره، إذْ ظاهر حديث الحوض أنّه تشرب منه الأمّة كلّها، إلاّ مَن ارتدّ على عقبه، وغَيَّر وبَدَّل»[2]. وعلى التّأويل الأوّل يتخرّج قول النّاظم على ما فيه من الإشكال.

وقوله : "مِنَ العُصَاة"؛ هم المراد بقوله في الحديث : "وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ"؛ وهي الكبائر، والصّغائر لمَن لم يجتنب الكبائر.

وقوله : "وكالصّرَاط.." البيت؛ أيْ وتلك الآيات أيضاً كما تشبه الحوض في ابيضاض الوجوه بها مثله، كذلك تشبه الصّراط، والمراد به الصّراط المستقيم المذكور في فاتحة الكتاب، وهو دين الحقّ الّذي لا

---

(1) سورة طه : من الآية 102. والآية بتمامها : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

(2) انظر إكمال المعلم بفوائد مسلم. القاضي عياض : 257/7.

اعوجاج فيه، أو الصّراط الّذي هو جسر على متن جهنّم، فإنّه خطّ مستقيم لا اعوجاج فيه، وهما متلازمان، فإنّه لا يسير على متن الجسر سيرًا مستقيمًا من غير مَيل إلاّ مَن كان على طريق الاستقامة في الدّنيا. وتشبه أيضاً الميزان؛ إمّا الدّنيويّ أو الأخرويّ، فإنّه يُبيّن العَدل من غيره.

ووجه الشّبه بين الآيات وبين كلٍّ من الصّراط والميزان؛ أنّ الآيات في أحكامها وإخباراتها كلّها ذات عَدل واستقامة كاستقامة الطّريق والميزان، فقوله : "مَعدِلَة" بيان لوجه التّشبيه، كما أنّ "تبيّض الوجوه به" بيان لذلك في البيت قبله.

فإنْ قلتَ : ليس التّشبيه في البيتين بظاهر؛ فإنّه ليس من لوازم الحوض ابيضاض الوجوه المَسْودّة به، ولا من لوازم الصّراط والميزان العدل.

قلتُ : بل ذلك من لوازمها إنْ كانت «أل» في الثّلاثة للعهد في الأشياء الأخروية، أو في الصّراط المستقيم والميزان المستقيم الدّنيويَين.

وقوله : "فالقِسْط.." إلى آخره؛ أيْ إذا كانت هذه الآيات كالصّراط والميزان في العدل، أنتج ذلك أنّ القِسط - أيْ العدل - لم يثبت في النّاس من غير هذه الآيات. ويُروى: "للنّاس".

فإنْ قلتَ : لفظه مشكل من وجوه :

الأوّل : أنّ الفاء في قوله : "فالقِسْط" ليس هذا محلّها؛ فإنّه لا ملازمة بين شبهها للصّراط والميزان، وبين أنْ لا يكون في النّاس عدل من غيرها.

الثّاني : إنْ سُلِّم ذلك، لم يلزم أنْ يكون في النّاس عدل منها؛ فإنّه نفَى أنْ يكون العدل في النّاس من غيرها، ولا يلزم منه أنْ يكون في النّاس عدل منها.

الثّالث : إنّ لفظ "النّاس" إنْ أُخِذ عامًّا، لزم أنْ لا يكون في أهل التوراة وفي أهل الإنجيل وغيرهم من أهلِ الكتب السّماوية عدل، لتقدّمها على نزول القرآن، وهو باطل. وإنْ أُخِذ خاصًّا بهذه الأمّة، لزم أنْ لا يكون الأخذ بغير القرآن من أدلّة الأحكام الشّرعية؛ كالسُنّة والإجماع والقياس والاستدلال عدلاً، وهو باطل.

قلتُ : هذه إشكالات ظاهرة، ويمكن أنْ يُجاب عن الأوّل : بأنّه أتى بالفاء إعلاماً بأنّ تشبيهها بالصّراط والميزان تشبيه تامٌّ، وكما أنّه لا يُوجد عدل أو مكان عدل في النّاس، إلاّ من الطّريق أو الميزان؛ معنويّين كانا أو حسّيّين، فكذا لا يُوجد في الدّين إلاّ من آيات القرآن، تحقيقاً للتّشبيه، وتتميماً له؛ قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾ [1]. وقال تعالى : ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ.. ﴾ الآية[2]. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[3]. وهو كثير.

وعن الثّاني : بأنّ قوله "العدل.." إلى آخره؛ قضيّة موجبة معدولة، وهي تستلزم وجود موضوعها الّذي هو العدل، ولذا قدّم المُسند إليه، مع كونه الأصل، وأيضاً من المعلوم عقلاً وقطعاً وجود العدل في النّاس، فلا بدّ له من أصل، والعقل معزول عن ذلك عند أهل الحقّ، فلم يبق إلاّ الشّرع، وأصله القرآن.

---

(1) سورة الشورى : من الآية 52.
(2) سورة فصلت : من الآية 44.
(3) سورة البقرة : الآية 2.

وعن الثّالث : بأنّ المراد بـ "النّاس" الخصوص، وهم هذه الأمّة، وما ذُكر من مدارك الأحكام غير القرآن، فإنّها راجعة إلى القرآن، كما أنّ جميع الأدلّة الشّرعية راجعة إلى الكلام النّفسي، فوجه رجوع السُنّة إلى القرآن؛ كونه الآمر باتّباعها، واعتقاد حجّيتها، وذلك فيه كثير، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[1]. ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[2]. ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[3]. ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[4].

وأمّا رجوع الإجماع إليه؛ فلأنّه لا بدّ له من مُستند، فإنْ كان القرآن، فذاك، وإن كان السُنّة، فقد تبيّن لك رجوعها إلى القرآن، والرّاجع إلى الرّاجع إلى شيء - إمّا بدرجة أو درجات - راجع بالأخيرة إلى ذلك الشّيء. وأمّا القياس؛ فلأنّه معقول أصلٍ من الكتاب أو السُنّة، والاستدلال نوع منه.

ولو قال قائل : المراد بـ "النّاس" العموم، ومعاني الكتاب المتقدّمة - سِيّما أصول الإيمان منها - من القرآن، ويُستدلّ بمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[5]. لَمَا أَبْعَدَ.

---

(1) سورة النجم : الآية 3.

(2) سورة النساء : من الآية 80.

(3) سورة الحشر : من الآية 7.

(4) سورة النحل : من الآية 44.

(5) سورة الأعلى : الآيتان 18 و19.

[صفة الصراط والميزان]

وممّا ورد في صفة الصّراط الّذي هو جسر على متن جهنّم - أعاننا الله على الجواز عليه، وجعلنا ممّن يقطع مفازته العظيمة إلى ناحية السّلامة على أكمل وجه وأسرعه وأحسنه بجاه محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه - أنّه أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، وأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ. ثبت ذلك في الرّوايات المشهورة[1].

وما لا تحيله العقول، يجوز وقوعه، ويجب الإيمان بما ثبت منه بإخبار الرّسل صلوات الله عليهم أجمعين.

ورُوينا في صحيحَي البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة أنّ ناساً قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ : «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**». قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ : «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**». قَالُوا : لَا. قَالَ : «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ..**». الحديث ذكره مسلم في كتاب الإيمان، والبخاريّ في كتاب الرّقائق[2]. وفيه من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ**». هذا لفظ مسلم[3]. ولفظ

---

(1) انظر شعب الإيمان للبيهقي : 564/1. رقم الأثر : 361.

(2) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب الصِّرَاطُ جَسْرُ جَهَنَّمَ. صحيح مسلم في الإيمان. بَاب مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ.

(3) انظر صحيح مسلم في الإيمان. بَاب مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ.

البخاريّ : «**وَبِهِ كَلَالِيبُ**» يعني بالصّراط[1]. ثمّ لفظ مسلم : «**هَلْ رَأَيْتُمْ السَّعْدَانَ؟**». **قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ :** «**فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ الْمُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُجَازَى، حَتَّى يُنَجَّى..**»[2]. وفي البخاري : «**الْمُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو**»[3].

والحديث طويل، ومرادنا منه ذكر الصّراط، وقد نُقل في صفة الصّراط أقوال أُخَر ليست بالقويّة، فلذلك تركناها.

وأمّا الميزان الأخرويّ؛ فهو أيضاً ممّا يجب الإيمان به كالحوض والصّراط؛ لأنّ القرآن أخبر عنه والأنبياء -صلوات الله عليهم - كذلك، وقد اختُلِف فيه - هل هو معنويّ أو حسّي، وعلى الثّاني؛ هل هو كموازين الدّنيا، أو على صفة أخرى، وأمّا الّذي يوزن فيه؛ هل الصّحائف، أو صور الأعمال، فإنّ نفس الأعمال أعراض لا توزن، وهل هو مثل ميزان الدّنيا في شرف ما يَثْقُل، وخسّة ما يَخِفّ، أو على العكس - اختلافا كثيرًا.

والّذي يجب الإيمان به ثبوته؛ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ..﴾ الآية[4] وغير ما آية، والمشهور أنّه ذو كفّتين ولسان[5]، يثقل

---

(1) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب الصِّرَاطُ جَسْرُ جَهَنَّمَ.

(2) انظر صحيح مسلم في الإيمان. بَاب مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ.

(3) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب الصِّرَاطُ جَسْرُ جَهَنَّمَ.

(4) سورة الأنبياء : من الآية 47.

(5) انظر لوامع الأنوار البهية. شمس الدين السفاريني : 185/2.

وقد قال أبو جهل : والله إنّ محمّدًا لصادق، لكن كنّا وبنو هاشم يطعمون ونُطعم، وما فعلوا من خَصلة، إلاّ وفعلنا مثلها، حتّى إذا كنّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قالوا : إنّه يأتينا الوحي من السّماء، فمِن لنَا بهَذِه، لاَ نُؤمن به أبدًا[1]. ومثله من الحُسّاد كثير.

وقوله : "قَد تُنْكِر العَينُ.." البيت؛ استدلالٌ على ما نهى عنه من التّعجّب، فإنّه مظنّة أنْ يُسأل فيُقال : لِمَ لا يُتعجَّب من ذلك؟ فقال مؤنساً بهذا التّمثيل : قد تنكر العين.. إلى آخره؛ أيْ أنّ إظهار هذا الحاسد إنكار حقيقة هذه الآيات - مع ظهور أمرها - لمانع الحسد، ومع كونه عالماً بأنّها في نفس الأمر حقّ، إنّما إنكاره نفور من الإقرار بالحقّ لكراهية الآتي به، وذلك كإنكار العين ضوء الشّمس لأجل ما قام بها من مانع النّظر إليه، وهو مرض الرّمد، فذلك الإنكار نفور من النّظر إلى الضّوء مع العِلم بوجوده، وهو أيضاً كإنكار الفم طَعْم الماء لمانع المرض؛ الّذي قام بصاحب الفم، وليس هذا إلاّ محض النّفور من استعماله مع العِلم بما هو عليه من حقيقة الطّعم المخصوص في نفس الأمر.

قال بعضهم : «"قد" إذا دخلت على المضارع للتّقليل، والحجّة لا تقوم له بالقليل النّادر؛ إذ للخصم أنْ يقول : هذا المثال نادر، فلا ينهض حجّة على المتعجّب؛ لأنّ النادر – لقلّته - قد لا يصدق على صورة النّزاع، بخلاف الأكثريّ، فإنّه مظنّة لوقوعه عليها، أو يقرب من المظنّة، فلو أتى النّاظم بـ "كم" الخبرية مكان "قد"، لكان أَوْلى؛ لدلالتها على الكثير». انتهى.

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 82/2.

قلتُ : التّقليل فيها ليس بلازم مع المضارع، بل قد تكون معه للتّحقيق؛ قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[1]. ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾[2]. ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾[3].

وقال الشّاعر[4] :

قَـدْ أَتْـرُكُ القِـرْنَ مُصْـفَرًّا أَنامِلُـه كَـأَنَّ أَثْوابَـهُ مُجَّـتْ بِفِرْصَـادِ

ولو كانت للتّقليل في البيت ما تمدّح الشّاعر بمعناه. وهذه معارضة، وإلاّ فالجواب الحقيقي أنْ يُقال : سَلّمنا أنّها للتّقليل وليست إلاّ له، وهو مراد النّاظم، وإنّما تقوم الحجّة به؛ لأنّه أتى بقوله : "قد تنكر العين" مأْتَى التّمثيل، ولا بدّ أنْ يكون مطابقاً للممثّل به، فهو يقول : لا تَعْجب من المنكر الحاسد، فإنّه قليل بالنّسبة إلى مَن سمع القرآن وآمن به، ممّن يفهمه، فإنّ الّذي ينكر حسدًا هو ممّن يفهم، فالنّاظم يقول : لا تعترض عليّ بذلك الحاسد، فإنّه قليل، وذلك متصوّر، كما يتصوّر إنكار العين للضّوء، وإنكار الفم للماء؛ لمانع فيهما، وإنْ كان ذلك نادرًا بالنّسبة إلى الأعين والأفواه الصّحيحة، ولم يُرِد النّاظم نفي التّعجّب ممّن لم يؤمن بالآيات من الكفّار؛ كان مِمَّن يفهمها أو لا، فإنّه إنّما نهى عن

---

(1) سورة البقرة : من الآية 144.

(2) سورة الأحزاب : من الآية 18.

(3) سورة الأنعام : من الآية 33.

(4) هو عَبِيْد بن الأبرص. والقِرن : المثيل في الشجاعة. مُجّت : يريد أنها صُبغَت. الفِرصاد: التُّوت : شبّه الدم بعصارة التوت الحمراء). والفرصاد : التوت الشاميّ. شبه الدم بحمرة عصارته. ومجّت : رميت. والمراد: صبغت. انظر البيت في خزانة الأدب. البغدادي : 257/11.

التّعجّب من منكرٍ خاص؛ وهو الحسود المتجاهل، ولو أتى بـ "كم" الخبرية، لكان التّمثيل غير مطابق، ولقامت الحجّة عليه لا له، فإنّه يُقال له: إذا كثر منكرها لم تكن في الظّهور بالمنزلة الّتي ذكرتَ.

ولئن سَلَّمنا ما ذكره المعترض جدلاً؛ لأنّ الجواب التّحقيقيّ ما ذكرنا يكون للتّقليل من وجه آخر، وذلك أنّ المَنهيَّ عن التّعجّب قد يدّعي استحالة إنكار الظّاهر، فيكفي النّاظم بيان إمكان المدّعي، ولو في صورة واحدة، إذ يكفي النّقض بجزئيّة؛ لأنّ نقيض الكلّية السالبة جزئيّة موجبة، وظهر بما قرّرناه أنّ النّاظم إنّما أراد بالحسود المنكر الّذي يعلم حقيقة الأمر، ويتجاهل قضاءً لحقّ قوله "تجاهلاً"، وهو في غاية الظّهور.

وقد أطال بعضهم هنا فقال : «قد يوقع الحسد لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في جَحْد إعجاز الآيات مع العِلم به، فيُظهر عدم دلالتها تجاهلاً، وقد يكون الحسد حاجبًا للفهم عن إدراك إعجازها، والظّاهر من مراد النّاظم الأوّل، لكنّه لا يوافق الاستدلال عليه بقوله : "قد تُنكر.." البيت؛ لأنّ إنكار الرَّمِد ضوءَ الشّمس، وذو السّقم طَعْم الماء، ليس من هذا؛ لأنّ كلّ واحد لا يسعه إنكار وجود الأمرَين في الوجود. والجواب : إنّهما يصلحان مثالاً للقِسمَين، وأنّ قوله : "تجاهلاً" جواب عن السؤال عن سبب النّهي عن التّعجّب من الأوّل، وقوله : "تجاهلاً" معمول لفعل محذوف؛ أيْ أنكرها تجاهلاً، لا للظّاهر، والتّقدير : لا تعجبوا للحَسُود الّذي ظلّ ينكرها، فإنّه إنّما أنكرها تجاهلاً لا حقيقةً. وقوله : "قد تُنكر.." البيت جواب عن القِسم الثّاني، ومراده بإنكار الأرْمَد ضوءَ الشّمس منعَ الرَّمَد إياه من إبصار

ضوءها، حتّى يعتقد أنّها لم ترتفع فوق الأفق، ومثله في منكر طَعْم الماء، لكنّ إسقاطه حرف العطف من "قد تنكر" يوهم أنّه جواب للقِسمَين». انتهى مختصرًا ملخّصًا. ولا يخفى ما فيه من التكلّف والخروج عن الظّاهر، أمّا القسم الثّاني فليس في كلامه ما يدلّ عليه البتّة، ويلزم على ما قال في "تجاهلاً" تهيئة العامل الظّاهر للعمل فيه، وقطعه عنه، وهو ممتنع، وما أوقعه في هذا التكلّف إلاّ خفاء مطابقة التّمثيل عليه. ومِن معنى نهي النّاظم عن التّعجّب من إنكار المنكر تجاهلا قول الشّاعر :

مَا ضَـرَّ شَـمْسَ الضُّـحَى وَالشَّـمْسُ طَالِعَـةً ... أَنْ لاَ يَكُـونَ رَأَى مَـنْ لَـيْسَ ذَا بَصَـرِ[1]

وقول الفرزدق في عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - حين أتى للمطاف، فأفسح النّاس له هيبةً وإجلالاً. وقد كان هشام بن عبد الملك[2] حجّ تلك السّنة، والتمس استلام الحجر، فلم يقْدِر عليه من زحمة النّاس، وجلس حين طاف، فقدم عليّ بن الحسين، ففعل النّاس به ما ذُكر، وهو ينظر، فقال رجل من أهل الشّام : مَن ذَا الّذي أكرمه النّاس هذا الإكرام. فقال هشام : لا أعرفه. لئلاّ يعظُم في صدور أهل الشّام،

---

(1) سبق الكلام عنه.

(2) هو هشام بن عبد الملك بن مروان (71 - 125هـ = 690 - 743م). من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد في دمشق، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد. وبنى الرصافة (على أربعة فراسخ من الرقة غرباً) وهي غير رصافتي بغداد والبصرة، وكان يسكنها في الصيف، وتوفي فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 86/8.

فقال الفرزدق، وكان حاضرًا : هذا ابنُ خَيْرِ عِبادِ اللهِ كُلِّهِمُ.. القصيدة بطولها[1] إلى أنْ قال فيها:

---

(1) انظر القصة والأبيات في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 327/21. زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 103/1 وما بعدها. وهذه هي الأبيات :

هذا الذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ ... والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خَيْرِ عِبادِ اللهِ كُلِّهِمُ ... هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ
إذا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قالَ قائِلُها ... إلى مَكارِمِ هذا يَنْتَهِي الكَرَمُ
يَكادُ يُمْسِكُهُ، عِرْفانَ راحَتِهِ ... رُكْنُ الحَطِيم إذا ما جاء يَسْتَلِمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيَّةَ ذا ... الدِّينُ مِنْ بَيْت هذا نالَهُ الأُمَمُ
فلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هذا بضائِرِهِ ... العُرْبُ تَعْرِفُ مَن أَنْكَرْت والعَجَمُ
هذا ابنُ فاطمةَ إنْ كُنتَ جاهِلَهُ ... بجَدِّهِ أَنْبياءُ اللهِ قد خُتِمُوا
لو يَعْلَمُ البَيْتُ مَن قد جاء يَلْثِمُهُ ... لَظَلَّ يَلْثِمُ مِنْه ما وَطِي القَدَمُ
يَنْشَقُّ نُورُ الهُدَى عن نُورِ غُرَّتِهِ ... كالشَّمْسِ تَنْجابُ عن إشْراقِها الظُّلَمُ
ما قالَ لا قَطُّ إلاَّ في تَشَهُّدِهِ ... لَوْلا التَشَهُّدُ كانَتْ لاءَهُ نَعَمُ
يَنْمِى إلى ذِرْوَةِ المَجْدِ التى قَصُرَتْ ... عن نَيْلِها عَرَبُ الإسْلامِ والعَجَمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كانُوا أَئِمَّتَهُمْ ... أَو قِيلَ مَن خَيْرُ أَهْل الأَرْضِ قِيلَ هُم
مَنْ جَدُّهُ دانَ فَضْلُ الأَنْبياءِ لَهُ ... وفَضْلُ أُمَّتِهِ دانَتْ لَهُ الأُمَمُ
لا يُخْلِفُ الوَعْدُ، مَيْمُونٌ نَقِيبَتُهُ ... رَحْبُ الفِناءِ، أَرِيبٌ حينَ يَعْتَزِمُ
مِن مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ، وبُغْضُهُمْ ... كُفْرٌ، وقُرْبُهُمْ مَنْجىً ومُعْتَصَمُ
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ ذِكْرُهُمُ ... فى كُلِّ دِينٍ ومَخْتُومٌ بِهِ الكَلِمُ
يُسْتَدْفَعُ البُؤْسُ والبَلْوَى بِحُبِّهِمُ ... ويُسْتَرَبُّ بِهِ الإحْسانُ والنِّعَمُ
هُمُ الغُيُوثُ إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَى والبَأْسُ مُحْتَدِمُ
يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحُلَّ الذَّمُّ ساحَتَهُمْ ... خِيمٌ كَرِيمٌ وأَيْدٍ بالنَّدَى هُضُمُ

فلَيْسَ قَوْلُـكَ مَـنْ هـذا بِضـائِرِهِ   العُرْبُ تَعْرِفُ مَن أَنْكَرْت والعَجَمُ

وممّا يقرب من هذا المعنى قول الشّاعر[1] :

وَلَـيْسَ يَصِـحُّ فِـي الأَفْهَـامِ شَـيْءٌ   إِذَا احْتَـاجَ النَّهَـارُ إِلَـى دَلِيـلِ

---

(1) هو المتنبي. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 106/3.

اَلْبَيَانُ

إسناد "الردّ" إلى البلاغة مجاز عقليّ. وتشبيه "ردّ البلاغة دعوى المعارض" بـ "ردّ الغيور يد الجاني"؛ هو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وقد يُقال : إنّه من تشبيه المحسوس بالمحسوس؛ باعتبار انصراف مدّعي المعارضة حسًّا عن التّوجّه إليها، وانظر هل هو من تشبيه مفرد بمثله، أو من تشبيه أشياء بأشياء.

وتشبيه "معانيها" بـ "موج البحر" من تشبيه المعقول بالمحسوس، وأمّا تشبيه حسنها ومقدارها بما يزيد على حسن الجوهر وقيمته، فمِن تشبيه المعقول؛ إمّا بالمعقول، وإمّا بالمحسوس. وقوله : "في مدد" و"في الحسن" و"القيم" هو وجه التّشبيه، إلاّ أنّه في الأوّل واحد، وفي الثّاني اثنان.

وقوله : "قرّتْ بهَا عَينُ قَارِيهَا"؛ كناية عن السّرور إنْ كان من البرد؛ لأنّ دمعة الفرح باردة كما تقدّم، فهي لازمة للسّرور، فعبّر باللاّزم، وأراد الملزوم، أو عن بلوغ الأمل إنْ كان من السّكون والثّبات، فإنّ مَن مُنع شيئاً يريد تحصيله يضطرب، ولا يسكن حتّى يناله، وكذا لا تزال عينه تطرف وتطمح إليه حتّى يُحصّل، فتستقرّ.

وأمّا استعارة "الحبل" لـ "آيات الله"؛ فقد يُقال : إنّها تجريديّة؛ لأنّ الاعتصام يناسب المستعار له، وأمّا : ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾(1)؛ فاستعارة العروة للإيمان ترشيحيّة؛ لأنّ الاستمساك يلائم المستعار منه. ووجه استعارة "الحبل" لـ "العهد" : أنّ الحبل سبب يُتوصّل به إلى الأشياء، وكذا عهد الله يُتوصّل به إلى ثوابه.

---

(1) سورة البقرة : من الآية 256.

وقوله : "أطفأت حرّ لظى مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ "؛ قال بعضهم : «أطفأت؛ أيْ نَجَوْتَ؛ مجاز مرسل؛ من إطلاق السَّبب على المُسبَّب، أو اللاّزم على الملزوم، فإنّ إطفاءها سبب للنّجاة منها، وملزوم لتلك النّجاة».

واستعارة "الوِرد" لـ "الآيات" ترشيحيّة؛ لأنّ الشّبم ممّا يلائم المستعار منه، ووجه الشّبه : أنّ الماء يطفئ وِرده حرارة العطش، ووِرد الآيات يطفئ حرارة جهنّم. أعاذنا الله منها بمنّه وفضله. ويحتمل أنْ يكون هذا من الاستعارة المكنّى عنها؛ بأنْ تُشبّه "الآيات" في الإبعاد من النّار بالماء البارد، فحُذف، وأثبت من لوازمه الوِرد والشّبم، وهذا إنْ كان الوِرد المضاف إلى الماء ضدّ الصّدر، وإنْ جُعلت الوِرد الحزب من القرآن، فلازم المشبّه به هو الشّبم خاصّة. وتشبيهها بـ "الحوض" من تشبيه المعقول بالمحسوس، ووجه الشّبه حسّي، وهو قوله : "تبيضّ"، وهو مركّب لقوله : "من العصاة.." إلى آخر. وأمّا قوله : "كالحُمَم" فمِن تشبيه محسوس بمحسوس. وتشبيهها بـ "الصّراط" و"الميزان"؛ إنْ أُريد المعنويان فمعقول بمعقول، وإنْ أُريد الحسّيان فمعقول بمحسوس، ووجه الشّبه وهو "مَعدِلَة"؛ معنويّ إنْ أُريد العدل، والمُشبَّه به هنا متعدّد، والمُشبَّه متّحد.

وقوله : "لم يقم"؛ يحتمل الحقيقة إنْ كان معناه يثبت، ويحتمل المجاز بأنْ يُستعار للثّبوت انتصابُ القامة، والجامع الظّهور والاستقامة.

وقوله : "وهو عين الحاذق"؛ يحتمل أنْ يكون مجازًا مرسلاً؛ من باب تسمية الجزء باسم الكلّ؛ لأنّ أشرف الأعضاء وأقواها في الأسباب الموصلة إلى العِلم والتّمييز العينُ، ولا سِيَّما إنْ كانت عين البصيرة.

[حقيقة الجمع مع التّفريق]

وهو : «أَنْ يَدْخُلَ شَيْئَان فِي مَعْنىً وَاحِدٍ، ثُمَّ يُفَرَّقُ بَيْنَ جِهَتَيْ الإِدْخَالِ» (1). كقوله(2) :

وَجْهُكَ(3) كَالنَّارِ فِي ضَوْئِها وقَلْبِيَ كالنَّارِ في حَرِّهَا

شبَّهَ وجه الحبيب وقلبَ نفسه بالنّار، وفرّق بين جهتَي الإدخال؛ فالوجه في ضوئها، والقلب في حرّها. ومنه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾(4).

وهو في البيت تشبيه كثرة معاني القرآن وحسنها وقدرها بـ "البحر"، وفرّق بين جهتَي الشّبه؛ فأمّا الكثرة فتشبه مَوْجَه في المَدَد، وأمّا الحسن والقَدْر فيزيدان على حسن جوهره وقيمته. وفيه طباق خفيّ؛ فإنّ الموج ممّا يظهر على سطح ماء البحر، والجوهر ممّا يرسب في قعره، ومن وجه آخر : أنّ الموج كثير، والجوهر قليل، ووجه آخر : أنّ الموج كمعاني الآيات الظّاهرة، والجوهر كمعانيها الباطنة، ولمّا كان إدراك الظّاهرة أسهل، كثرت كالموج، وكثر مدركوها، ولمّا كان إدراك الباطنة أصعب، قلّت، وقلّ مستخرجوها بالغوص عليها، ولذا حين شبّه في الكثرة باعتبار الظّاهرة سوّى في التّشبيه؛ فقال : "كمَوْج"، وحين شَبَّه في الحسن والقَدْر؛ باعتبار الباطنة، قال : "وفَوْق جَوْهره".

---

(1) انظر التعريف في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 153/7.

(2) هو رشيد الدّين الوطواط. انظر البيت في نهاية الأرب. النويري: 153/7.

(3) المحفوظ : "فوَجْهُكَ" بدل "وَجْهُكَ".

(4) سورة الإسراء : من الآية 12.

وعلى ما قدّمنا من رأيْ بعضهم : أنّ "فَوْقَ" خبر مبتدأ مُضمر، يجوز عَوْدُه على الخطّ الدّال على "الآيات"، يكون في البيت استخدام؛ لأنّ ضمير "لها" للألفاظ، وهي للخطوط. ثمّ قال : «فإنْ قيل هل في البيت تفريق؟ لأنّ موج البحر وجوهره شيئان من نوع واحد، منسوبان إلى البحر، وحَكَم للموج بمشابهة معاني الآيات، وللجوهر بنفيها. قلتُ : لا؛ لأنّ المعاني الّتي شبّهَ غير الّتي لم يُشبِّه. نعم؛ يمكن أنْ يكون هذا من التّقسيم الّذي يُضاف فيه إلى كلّ من المتعدّد ما يخصّه، مِن غير اشتراط نوع المتعدّد ولا تضادّ الأحكام، بل كيفما اتّفق؛ ومنه قوله[1] :

نرجو سُلُوا في رسُومٍ بَيْنها ... الأغصانُ سكْرَى والحمامُ مُتَيَّمُ
هَذِي تميلُ إذا تَنَسَّمَتِ الصِّبَا ... والوُرقُ تذكُرُ شَجْوَها فترَنَّمُ». انتهى.

قلتُ : ومِن التّقسيم قوله[2] :

وَلاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ ... إلاَّ الأَذَلاَّنِ : عَيْرُ الْحَيِّ والْوَتِدُ
هذا على الخسفِ مربوطٌ برُمَّتِهِ ... وذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِي لَهُ أحَدُ

والظّاهر أنّ ما هنا من الجمع والتّفريق كما بيّنا.

ونفْي العدّ والإحصاء وذكْر العجائب معهما من مراعاة النّظير. وفي قوله : "ولا تُسَام" - على تفسيرنا - التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق، وعلى تفسير بعضهم تجنيس الاشتقاق. ولا يبعد أنْ يكون "بالسَّأَمِ" من

(1) هو صردر. انظر البيتين في معاهد التنصيص. أبو الفتح العباسي : 311/2.
(2) هو المتلمّس. انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي: 352/6.

الإرصاد. وفي "قرّت" و"قاريها" التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق. وفي "قَرَّت" و"عين" و"فاعتصم" من مراعاة النّظير، وكذا "حبل الله" و"فاعتصم" وكذا ذكر الظّفر معهما.

والجمع بين "الحرّ" و"لظى"، وبين "النّار" والإطفاء من مراعاة النّظير، وكذا بين "الوِرد" و"الشّبم"، وبين اللّفظين الأوّلين والأخيرين الطّباق، وكذا بين "نار" و"شبم"، أو بينهما وبين "وِرد"، إلاّ أنّه على الأخير من الخفيّ؛ لاستلزام الوِرد الماء إنْ لم يَكُنْه، وكذا لفظ "لظى" و"أطفأت" بينهما طباق خفيّ؛ لِما في "لظى" من معنى التلظّي؛ الّذي هو الاتّقاد، وإنْ أُرِيد بـ "الوِرد" الحزب من القرآن فهو من التّورية المرشّحة.

قال بعضهم : «وتعليله إطفاء اللّهب بتلاوة الآيات من حسن التّعليل». انتهى.

قلتُ : وذكره "النّار" في هذا البيت و"الحوض" في الّذي يليه من الطّباق، وكذا "تبيضّ" مع "الحُمَم". و"الحوض" و"تبيضّ" و"الوجوه" من مراعاة النّظير، وكذا "الوجوه" و"العصاة" و"الحُمَم".

وفي البيت التّلميح؛ لأنّه أشار إلى ما ورد في الخبر من اغتسال الجَهَنَّمِيّين في نهر الحياة كما تقدّم. وقال بعضهم : «قوله : "تبيضّ" مع قوله : "وقد جاءُوهُ كَالحُمَمِ" هو من أنواع المبالغة الإغراق؛ لأنّه ممكن في نفسه، مخالف للمعتاد». وفيه نظر قد مرّ نظيره.

وألفاظ "الصّراط" و"الميزان" و"المعدِلة" و"القِسط" و"لم يقُم" من مراعاة النّظير، وكذا ذكر النّاس" معها. وقوله : "لم يقم" مع قوله : "معدِلة" أو مع قوله : "القِسط" من الطّباق.

وفوق : إمّا خبر مبتدأ محذوف كما تقدّم، أو عطف على الصّفة، فهو صفة مثله، وهو من ظروف المكان حقيقة، ثمّ قد يتجوّز به إلى المعاني، فتكون الفوقية في الرّتبة والشّرف كهذا الموضع. وفي الحسن : متعلّق بالظّرف، أو بما يتعلّق به. وإنْ جُعل "فوق" خبر مبتدأ، فجملته وجملة "لها معانٍ.." تحتملان الاستئناف والخبريّة، وكذا جملة "فما.." وما عطف عليها؛ لعطفها على جملة "لها..".

وعجائبها : يطلبه "تُعد" و"تُحصى"، والعامل فيه عند البصريين - على المختار عندهم في مثله -"تُحصى"، وفي "تُعدّ" ضمير يعود على "عجائبها" النّائب عن الفاعل. وهذا من المواضع الّتي يكون فيها الإضمار قبل الذّكر[1]، واختار الكوفيون العكس. وقال الفَرّاء : «إنّه معمول لهما». ورُدّ بأنّه لا يتّحد معمول عاملين، كلٌّ منهما مستقلّ[2].

---

(1) الإضمار قبل الذكر: جائز في خمسة مواضع هي :

- الأول : في ضمير الشأن، مثل: هو زيد قائم،
- والثاني : في ضمير رب، نحو: ربه رجلًا،
- والثالث : في ضمير "نِعْمَ"، نحو: نعم رجلًا زيد،
- والرابع : في تنازع الفعلين، نحو: ضربني وأكرمني زيد،
- والخامس : في بدل المظهر عن المضمر، نحو: ضربته زيدًا.

انظر التعريفات. الجرجاني : ص 29.

(2) رجّح ابن مالك رأي البصريين، وقال : «لأنّ إعمال الثاني أكثر في الكلام من إعمال الأوّل، وموافقة الأكثر أولى من موافقة الأقلّ. ومما يبيّن لك أنّ إعمال الأوّل قليل؛ قول سيبويه : ولو لم تجعل الكلام على الآخر، لقلت ضربتُ وضربُوني قومك، وإنّما كلامهم ضربتُ وضربَني قومك». انظر شرح التسهيل : 167/2.

وجملة "أطفأت.." وما تعلّق بها جواب الشّرط، وهو ماضٍ لفظاً، مستقبل معنًى. والأحسن في جواب الشّرط المجزوم أنْ يكون مجزوماً مثله، وكونه مبنيًا كما هنا ضعيف مرغوب عنه؛ لأنّ فيه تهيئة العامل - الّذي هو حرف الشّرط - للعمل وقطعه عنه، ويُغتفَر في الشِّعر؛ لأنّه محلّ الضّرورة.

قلتُ : وهذا التّعليل منتقَض بما إذا كانا ماضيَين، ومثل ما هنا في بعض روايات الحديث : «**مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1].

و "من" في "مِنْ وِرْدِها" : للتّعليل أو للتّبعيض.

والشّبم : نعت لـ "وِرد".

والجملة الشّرطية : الأظهر فيها الاستئناف، فلا محلّ لها، وتحتمل الخبرية، وكذا جملة "كأنّها.."، مع احتمال أنْ تكون خبر مبتدأ مُضمر، أو حالاً من "وِرد"، وفيه نظر.

وجملة "تبيضّ الوجوه به" : حال من "الحوض"، والعامل في الحال "كأنّ"؛ بما فيها من معنى التّشبيه؛ أيْ مشبهة الحوض في هذه الحال. ومن العصاة : حال من "الوجوه".

وجملة "وقد جاءوه" : حال من "العصاة" أو من "الوجوه". وإسناد "تبيضّ" إليها مجاز على حذف مضاف؛ أيْ ذو الوجوه، وعلى هذا المحذوف يعود فاعل "جاء".

---

(1) رواه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الإيمان. بَابٌ قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ.

وراح : ماضٍ، وفاعل. وينكرها : حال من هذا الفاعل. ومن رآها من أخوات "كان"، يجعل الضّمير اسمها، و"ينكرها" خبرها. وجملة "راح ينكرها" صفة لـ "حسود".

وتجاهلاً : إمّا مفعول من أجله، أو مصدر مرادف لـ "ينكرها"، أو حال من فاعل "يُنكرها"؛ أيْ متجاهلاً. وجملة "وَهُو عَينُ الحَاذِقِ الفَهِمِ" حال من فاعل "يُنكر".

ومن رَمَد : يتعلّق بـ "تُنكر"، و"من" للتّعليل، ونظيره "مِن سَقَم".

ولا محلّ لجملة "قَد تُنكِرُ.." وما عطف عليها؛ لأنّهما تعليلان، فهما مستأنفتان.

الْإِشَارَاتُ

[ردّ خواطر النّفس بآيات القرآن]

تقدّم في إشارات الأبيات الّتي قبل هذه: أنّها – وهذه - إشارة إلى فضيلة آيات القرآن. وقوله : "رَدَّت بَلاَغتُها.." البيت؛ كما ردّت بلاغة آيات الكتاب العزيز دعوى معارضها الردّ المذكور، إذ ليس له إلاّ مجرّد الدّعوى، كذلك ردّت مخلوقات الله ومصنوعاته – لِما فيها من الإحكام والإتقان، والدّلالة على كمال العِلم والقدرة والإرادة وجميع أوصاف الكمال – دعوَى الجاهل المطموس البصيرة الرّبوبيةَ وخَلْقَ شيء، ولو الأفعال : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾[1]. ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[2]. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا.. ﴾ الآية[3]. فمَن تحقّق بدلالة آيات الله ومصنوعاته أنْ لا خالق غيره لشيء من الأشياء وإنْ قلّ، فكيف يطمئنّ في شيء من مطالبه لغير الله؛ ممَّن لا يملك مثقال ذرّة من المخلوقين، فينبغي أنْ يردّ العاقل – بدلائل آيات القرآن العظيم وغيرها – ما يَرِد عليه من خواطر نفسه – من الرّكون إلى غير الله؛ الّذي هو كدعوى معارضة الرّبوبية في الأفعال والكلام، ويغار ويأنف أنْ يخطر ذلك بباله – ردّا كردّ الغَيور يدَ الجانِي عن الحُرم، وكذا

---

(1) سورة فاطر : من الآية 3.

(2) سورة لقمان : من الآية 11.

(3) سورة الحج : من الآية 73.

أيضاً يردّ بآيات القرآن اهتمامه بالمعاصي - فإنّ في المعاصي مخالفة، وهي نوع من دعوى المعارضة - ردًا كردّ الغيور يد الجاني عن الحُرم؛ «**فإنّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وحِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ**»[1].

ولذا كان عذاب القاري العاصي أشدّ من عذاب غيره؛ لانتفاء عذره؛ لأنّ مَن أُعطي القرآن والحِكمة، فقد أُعطي خيرًا كثيرًا، ومَن أُعطي الخير، ولَم يقبل فَقَمِنٌ بتشديد العذاب عليه. ومِن عدم قبوله ما أُعطي أنْ يعتقد في غيره - ممّن أُعطِي المال ولم يُعط القرآن - أنّه أُعطِي أفضل ممّا أُعطِي، وهي نهاية الغباوة والجهل، فإنّه لو خُيّر بين أنْ لا يحفظ أقصر سورة، وبين أَنْ يُعطَى مُلْك الدّنيا، لَمَا اختار إلاّ حفظ السّورة، فكيف بمَن أُعطِي مِن فهم معانيه؛ الّتي هي كموج البحر في مدد ما قُدّر له، فإنّه ما من معنى من تلك المعاني الّتي أدرك، إلاّ وهو خير من الدّنيا وما فيها، وقَدْره فوق جوهر البحر في حسنه وقيمته.

---

(1) هو جزء من حديث رواه مسلم عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ مرفوعا في المسافاة. بَاب أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ.

- ما يخافه من حرّ نار لظى، من أجل ما حصل له من وِرد ماء بحرها الشّبم، فينجو من لهبها، وينصرف عنها مبيضّ الوجه بتلاوة القرآن؛ كأنّها الحوض الّذي تبيضّ وجوه العصاة بسببه أو فيه، والحال أنّهم قد جاءوه كالحُمَم من إحراق النّار. وما أحقّه بذلك، فإنَّ القرآن عدل لا ميل فيه ولا حَيْف، فصاحبه ينبغي أنْ يكون على الاستقامة، لا يحيف ولا يميل، وإلاّ لم يكن صاحبه على الحقيقة، ولا ينتفع به، بل يكون عليه وبالاً، ومَن استعمل العدل في شأنه استقام على الصّراط، وقام ميزانه بالعدل؛ لأنّ من ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله، فالعدل لا يوجد من غيره.

فـ "لاَ تَعْجَبَنْ لحسُودٍ رَاحَ يُنكِرُهَا.." إلى آخره؛ بل فاعجبنَّ من حسود أدرك منزلتها وفضيلة القائم بها فسعى في إنالة ذلك، ليس العَجب ممّن هلك كيف هلك، بل العَجب ممّن نجا كيف نجا، وقليل ما هم؛ إذ لا ينجو مِن بَعث النّار إلاّ واحد من مائة ألف[1]، ولا يرِد حوض

---

(1) الثابت في الصحاح "ألف" بدل "مائة ألف"، ويشير بذلك إلى حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ : «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ : َبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ " فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ». رواه البخاري في أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ. بَابُ قِصَّةِ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ.

النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أمّته لقلّتهم في جنب من يزاد عنه لكثرتهم، إلاّ مثل ما يتقلّل من نَعَم الرّاعي حيث يسوقها.

منّ الله علينا بالنّجاة من فتن الدّنيا المضلّة ومهالك الآخرة بمنّه.

رُوينا في صحيح البخاري في ترجمة باب الحوض من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ – وفي رواية قَائِم - إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ، خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ تلّ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ : هَلُمَّ. فَقُلْتُ : أَيْنَ؟ قَالَ : إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ. قُلْتُ : وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ : إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى.. ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ تلّ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ : هَلُمَّ. قُلْتُ : أَيْنَ؟ قَالَ : إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ. قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ : إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ الْقَهْقَرَى.. فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ**». انتهى[1].

(1) انظر صحيح البخاري في الرقاق. بَاب فِي الْحَوْضِ.

[النّجاة في الاعتصام بحبل الله]

فمَن أراد النّجاة، فليعتصم بحبل الله من الكتاب والسُنّة، فحينئذٍ يطفئ حرّ لظى، ويبيضُّ وجهه : «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شيئين لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا؛ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي**»[1]. فليسْعَ العاقل في الاعتصام بهما، والتمسّك بأذيالهما، والاجتهاد في بثّهما، ويحسد من حصل له ذلك : «**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَة، فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»[2].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في الزكاة. بَاب إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي حَقِّهِ.

[الحسد المذموم والحسد المحمود]

وهذا الحسد هنا هو شدّة الحرص والرّغبة، فهو في الحقيقة غِبطة؛ وهو : أنْ يتمنّى أنْ يكون له من النّعمة مثل ما لغيره، من دون أنْ تزول عن الغير، ولو تمنّى زوالها عن الغير مع ذلك، لكان الحسد المذموم؛ الّذي : يَأْكُلُ الحَسَنَات، كَما تَأْكُلُ النّارُ الحطَبَ[1]، كحسد منكر الآيات تجاهلاً - نعوذ بالله منه - فإنّ الله تعالى ختم به السّورة الّتي جعلها عُوذَةً، فقال جلّ جلاله : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[2].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : «**ثَلاَثٌ هُنَّ أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، فَاتَّقُوهُنَّ، وَاحْذَرُوهُنَّ.. إِيَّاكُمْ وَالكِبْر، فَإِنَّ إِبْلِيسَ حَمَلَهُ الكِبْرُ عَلَى أَنْ لاَ يَسْجُدَ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالحِرْص، فَإِنَّ آدَمَ حَمَلَهُ الحِرْصُ عَلَى أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالحَسَد، فَإِنَّ ابْنَى آدَمَ إِنَّمَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ حَسَدًا**»[3].

---

(1) أصله حديث نبوي رواه أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مرفوعا في الأدب. بَاب فِي الْحَسَدِ. ورواه غيره. والحديث ضعيف.

(2) سورة الفلق : الآية 5.

(3) قال المتقي الهندي : رواه ابن عساكر. انظر كنز العمال. المتقي الهندي : 525/3. رقم الحديث : 7734. ورواه القشيري بسنده في رسالته. انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 288/1.

وقد قيل : «الحَاسِدُ جَاحِدٌ؛ لأَنَّهُ لاَ يَرْضَى بِقَضَاءِ الوَاحِدِ»[1]. «والحَسُودُ لاَ يَسُودُ»[2]. وقد قيل : إنّه الّذي بطن في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[3] [4].

وقيل[5] لأعرابيّ عاش مائة وعشرين سنة : ما طول عمرك؟ قال : «تَرَكْتُ الحَسَدَ، فَبَقِيتُ»[6]. وفي السّماء الخامسة ملَك إذا مرّ به عمل عبد له ضوء كضوء الشّمس، يقول له : «قِفْ، فَأَنَا مَلَكُ الحَسَدِ، اضْرِبُوا بِهِ وَجْهَ صَاحِبِهِ، فَإِنَّهُ حَاسِدٌ»[7]. وقال عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : «مَا رَأَيْت ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنْ الْحَاسِدِ؛ غَمٌّ دَائِمٌ، وَنَفَسٌ مُتَتَابِعٌ»[8].

قُلْ للحَسودِ، إذا تَنَفّسَ ضغنه   يـا ظالِمـاً ، وكأنّـهُ مَظلُـومُ[9]

وقيل : «لاَ يعُودُ ضَرَرُ الحَسَدِ إلاَّ عَلَى صَاحِبِهِ». قال[10] :

اصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الْحَسُو   دِ، فَـإِنَّ صَـبْرَكَ قَاتِلُـهْ

(1) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 288/1.
(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 288/1.
(3) سورة الأعراف : من الآية 33.
(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 288/1.
(5) القائل هو الأصمعي.
(6) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 288/1.
(7) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 289/1.
(8) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 289/1.
(9) صاحب البيت هو ابن المعتز. انظر البيت في شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد : 317/1.
(10) ينسب البيتان لابن المعتز ولأبي تمام. انظر البيتين في مفتاح العلوم. السكاكي الخوارزمي : ص 346.

النَّـــارُ تأْكُـــلُ بَعْضَـــهَا   إنْ لَـــمْ تَجِـــدْ مَـــا تَأْكُلُـــهُ

كما أنّه قد لا ينفع إلاّ المحسود، قال[1] :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْـــرَ فَضِـــيلَةٍ   طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ   مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وكثيرٌ ما يضرّ المحسود، حتّى قيل[2] : «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى عَبْدٍ عَدُوًّا لَا يَرْحَمُهُ، سَلَّطَ عَلَيْهِ حَاسِدًا»[3] :

كُلُّ العَداوَةِ قَدْ تُرْجَى إِماتَتُها   إِلاّ عَداوَةَ مَنْ عاداكَ من حَسَدِ[4]

وناهيك من ظلمة الحسد؛ أنْ منعت الاستضاءة بأنوار آيات الله، حتّى أنكرها الحاسد تجاهلاً منه، وهو الكامل الحذق، لكنّ مانع الحسد منعه، كما منع الرَّمَد عين صاحبه من الاستضاءة بنور الشّمس المحسوس، حتّى للخفافيش؛ فلِذا يحتجب من وجوده، ويخرج حين يُفقَد، وما وسعه إنكاره، كما أنكره صاحب الرَّمَد، وما ذاك إلاّ لبغضه صاحبُ الرَّمَد، لِما فيه أنّه يؤذيه، وكذا إنكار الفم طعم الماء مِن سقم. أعاذنا الله من حسد يسدّ باب الإنصاف، ويصدّ عن جميل الأوصاف، وألهمنا شكرًا يقتضي توالي الآلاء، ويقضي بانقضاء اللّأواء. بمنّه وفضله.

---

(1) هو أبو تمام. انظر البيتين في زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 247/1.

(2) القائل هو أبو العيناء.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 290/1.

(4) قال ابن عبد ربه : قال علي بن بشر المروزي: كتب إليّ ابن المبارك هذا البيت. انظر العقد الفريد: 171/2.

قلتُ : وكأنّه - والله أعلم - من أَبَحْتُ لك الشّيء : ضدّ المنع؛ لأنّ سَاحَة الدّار لا تمنعُ مَنْعَ بيوتها، أو مِن بَاحَ بسرّه؛ إذا أظهره.

والسّعْي : المشي. وقال الجوهري : «سَعى الرّجل يَسْعَى سَعْياً : عدا، وكذا عمل وكَسَب. وكلّ مَن وليَ شيئاً على قوم فهو سَاعٍ عليهم. وسَاعَانِي فسَعَيْتُهُ أَسْعِيهِ؛ أيْ غلبتَه في السّعي»[1].

المَتن : الظَّهْر. وجمعه مُتُون. وأصله ما اكتنف الصُلْب عن يمينٍ وشمالٍ من عَصَب ولحم. قال الجوهري : «ومَتْنا الظَهْرِ : مُكْتَنَفا الصُلْبِ عن يمينٍ وشمالٍ من عَصَب ولحم، يُذكَّر ويُؤنَّث. ومَتَنْتُ الرّجلَ مَتْناً : ضربت مَتْنَهُ. ومَتْنُ السّهم : ما دون الرِّيش منه إلى وسطه. ورجلٌ مَتْنٌ من الرّجال؛ أيْ صُلبٌ»[2].

الأَيْنُق : جمع نَاقَة، وهو مقلوب، وأصله أَنْوُق؛ جمع قلّة، استثقلوا ضمّة الواو فقدّموها، فقالوا : أَوْنُق - حكاها يعقوب عن بعض الطّائيّين - ثمّ عوّضوا من الواو ياءً، فقالوا: أَيْنُق، ثمّ جمعوها على أَيَانِق. وقد تُجمع النّاقة على نِيَاق؛ كثمرة وثمار، وصارت الواو ياءً لكسر ما قبلها. وبعير مُنَوَّقٌ : مُذلّل مروّض. ونَاقَة مُنَوَّقَة. والنَّوَّاق من الرّجال : الّذي يروِّض الأمور ويصلحها. وفى المثل : "اسْتَوْنَقَ الجَمَل"؛ أيْ صار نَاقَة. يُضرب لِمَن يأخذ في حديث أو صفة، ثمّ يخلطه بغيره. وأصله أنّ طرفة بن العبد كان عند بعض الملوك[3]، والمسيّب بن عَلَس ينشده شعرًا

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2377/6. مادة سعى.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2200/6. مادة متن.
(3) هو عمرو بن هند.

في وصف جمل، ثمّ حوّله إلى نعت ناقة[1]، فقال طرفة[2] : قد اسْتَنْوَقَ الجَمَلُ[3].

والرُّسُم - بضمّ الرّاء والسّين - : جمع رَسُوم. يُقال : نَاقةٌ رَسُومٌ : تؤثِّر في الأرض من شدّة الوطء. ورَسَمَتْ تَرْسِمُ رَسِيماً. ورَسَمْتُ له كذا فارْتَسَمَهُ، إذا امتثَلَه. والثّوبُ المُرَسَّمُ، بالتّشديد : المخطَّط. ورَسَمَ عَلَيَّ كذا : كتَبَ. والرَسِيمُ : ضربٌ من سير الإبل فوق الذَميلِ. رَسَمَ يَرْسِمُ بالكسر رَسِيماً. ولا يُقال أَرْسَمَ. والرَسُومُ : الّذي يبقَى على السَير يوماً وليلة[4].

والكُبْرَى : تأنيث الأكبر. وكَبِرَ يَكْبَرُ كِبَراً : أَسَنَّ، ومَكْبِراً بكسر الباء. ومنه : عَلاهُ المَكْبِرُ. والاسم الكَبْرَةُ بالفتح. عَلَتْه كَبْرَةٌ. وجمع الكُبْرى الكُبَرُ، وجمع الأكْبَرِ الأَكَابِرُ والأَكْبَرُون، لا كُبَرُ. لأنّ هذه البنية للصّفة خاصة، كالأحمر، ولا يُقال : رجل أَكْبَر، حتّى تُوصل بـ "مِن" أو "إلى". والمَكْبوراءُ : الكِبارُ. وتوارثوه كَابِراً عن كَابِرٍ؛ أيْ كَبيراً عن كَبيرٍ

(1) يعني حين قال :
وقد أَتَنَاسَى الْهَمّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ   بنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةِ مُكْــدَمِ
انظر البيت في لسان العرب. ابن منظور : 457/4.

(2) إنّما خطّأ طرفة المسيّب؛ لأنّ الصيعرية من سمات النّوق دون الفحل. فغضب المسيّب، وقال : ليقتلنه لسانه! فكان كما تفرس فيه.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1561/4. مادة نوق.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1932/5. مادة رسم.

بك عيناً نُعْمَةً؛ كنَزِهَ نُزْهَة، ونَعِمَكَ عيناً مثله. وأَنْعَمَ له : قال نَعَم. وفعل كذا وأَنْعَم؛ أيْ زاد. ونُعْمَةُ العين بالضمّ : قُرَّتها. ونُعْمَ عَيْنٍ، ونَعامَ عَيْنٍ، ونَعامَةَ عينٍ، ونُعْمَةَ عينٍ، ونُعْمى عينٍ، كلُّه بمعنًى؛ أيْ أفعل ذلك كرامةً لك، وإنْعَاماً بعينك[1]. ومادّة النّعمة كثيرة؛ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2].

العُظْمَى : تأنيث الأعْظَم. وتقدّمت المادّة.

مُغْتَنِم : اسم فاعل من اغْتَنَمْتُ الشّيء؛ أيْ اتّخذته غَنِيمَة. واغْتَنَمَهُ وتَغَنَّمَهُ : عَدَّهُ غنيمةً. والمَغْنَمُ والغَنيمَةُ بمعنًى، وغَنِمَ القوم غُنْماً بالضمّ. وغُناماكَ أنْ تفعل كذا؛ أيْ غايتك والّذي تَتَغَنَّمَهُ. وغَنَّمْتُهُ تَغْنيماً : نفّلته[3].

سَرَى : وأَسْرَى؛ إذا سار ليلاً. والجمهور إنّهما بمعنىً. وقال السّهيلي : «سَرَى لاَزِمٌ، وَأَسْرَى مُتَعَدٍ، لكن كثُر حذف مفعوله، فظنّ أهل اللّغة أنّهما بمعنىً»[4]. و﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[5]؛ أيْ أَسْرَى البراقَ بعبده، فحذف المفعول استغناءً عنه؛ لأنّ المقصود بالخبر ذكر محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو حُذف لقوّة الدّلالة عليه.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2041/5. مادة نعم.

(2) سورة إبراهيم : من الآية 34.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1999/5. مادة غنم.

(4) انظر الروض الأنف. السهيلي : 412/3.

(5) سورة الإسراء : من الآية 1.

قال : «واتّفق الرّواة على تسميته إسْراءً، ولم يقل أحد منهم سَرْي، واتّفق القرّاء على ﴿أَسْرَى﴾، ولم يقل أحد منهم : سَرَى»[1].

قلتُ : وقد تقدّمت المَادة في قوله : "نَعَمْ سَرَى"، ولا يخفى على أئمّة اللّغة ما ذكر.

ومِن حَرَم : أيْ من مكّة، فقيل : «من المسجد الحرام»[2]. وهو ظاهر الآية. وقيل : «مِن بيت أمّ هاني بنت أبي طالب»[3].

قلتُ : إلاّ أنْ يكون بيتها حينئذٍ ملاصقًا للمسجد، فيتّفق القولان. وقد قيل : «المراد بالمسجد الحَرَام في الآية الحَرَم كلّه؛ لإحاطته بالمسجد»[4].

إلى حَرَم : أيْ بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، ومكّة حرم الله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾[5]. والحَرَمَان : مكّة والمدينة، والحِرْمِيُّ : الرّجل المنسوب إلى الحَرَمِ. وتقدّمت المادّة في : "امْتَلأَتْ مِنَ المَحارِمِ".

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 412/3.

(2) ممن قاله الحسن وقتادة وابن إسحق. انظر زاد المسير. ابن الجوزي : 8/3. تفسير القرطبي : 210/10.

(3) وهو قول أكثر المفسرين. انظر زاد المسير. ابن الجوزي : 8/3. وقَالَ مُحَمّدُ بْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ - فِيمَا بَلَغَنِي- عَنْ أُمّ هَانِئ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وَاسْمُهَا : هِنْدٌ- فِي مَسْرَى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، أَنّهَا كَانَتْ تَقُولُ : «مَا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلاّ وهو فى بيتى». انظر الروض الأنف. السهيلي : 401/3.

(4) قاله أنس بن مالك، ورجحه الطبري. انظر المحرر الوجيز. ابن عطية : 435/3.

(5) سورة العنكبوت : من الآية 67.

الشَأْوُ : الغاية والأمَد. وعَدا الفرس شَأْواً؛ أيْ طَلَقاً. وهو الشَّوْطُ في جَرْي الخيل. والشَأْوُ : السَبْقُ. شَأَوْتُهم شَأْواً : سبقْتهم. وشَاءَاهُ على فاعَلَه؛ أيْ سابقه. وشَاءَه أيضاً مثل شَآه على القلب؛ أيْ سبقه. والشَأْوُ أيضاً : ما أُخرج من تراب البئر بمثل المِشْآةِ، وهي الزّبيل، يُقال : أَخْرَجَ شَأْواً أو شَأْوَيْنِ[1].

المُسْتَبِق : المبتدر للشّيء، اسم فاعل من اسْتَبَقَ، ومعناه تَسابَقَ، واسْتَبَقْنا في العَدْوِ؛ أيْ تَسابَقْنا. وقيل في قوله تعالى : ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾[2]؛ أيْ نَنْتَضِلُ. وسابَقْتُهُ فسَبَقْتُهُ سَبْقاً. وله سَابِقَةٌ في هذا الأمر؛ أيْ سَبَقَ النّاسَ إليه. والسَبَقُ بالتّحريك : الخَطَر الذي يوضَع بين أهلِ السِباقِ[3].

والدُّنوّ : القُرْب. دَنَا يَدْنُو، وأَدْنَا غيره. وسُمِيت الدُنْيَا لِدُنُوِّها؛ والجمع دُنَى ككُبَر، وأصله دُنَوْ، حُذفت الواو للسّاكنين. والنّسبة إليها دُنْياوِيٌّ، ودُنْيَوِيٌّ، ودُنْيِيّ. وأَدَنَتِ النّاقة : دَنا نِتاجها. ودانَيْتُ بين أمرين دَناوَةٌ : قاربت قرابةٌ. وما تزداد منّا إلاّ قُرباً ودَناوَةً. والدَنيُّ غير مهموز : القريب. ولَقِيتُهُ أَدْنَى دَنِيّ : أوّلَ شيء. وأمّا المهموز فالدُونِ. ويُدَنِّي في الأمور تَدْنِيَةً : يتتبّع صغيرها وخسيسها. وفي الحديث : «**إذا أَكَلْتُمْ فَدَنّوا**»[4]؛ أيْ كلُوا ممَّا يليكم. وتَدَنَّى؛ أيْ دَنا قليلاً قليلاً. وتَدانَوْا : دَنَا بعضُهم لبعض. وابن عمّ دِنْيٍ بتثليث الدّال، فإنْ ضُمّت لم تُصرف، وإنْ

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2388/6. مادة شأا.

(2) سورة يوسف : من الآية 17.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1494/4. مادة سبق.

(4) سبق الكلام عنه.

كُسرت فالوجهان، فإنْ أُضِيف العمّ إلى معرفة لم يكن دِنْيٍ بعده صفة؛ لأنّ المعرفة لا توصف بالنّكرة، نحو هو ابن عمه دِنْيَا ودِنْيَة؛ أيْ لَحًّا[1].

والمَرقَى : جمع مَرْقَاة؛ أيْ الدّرجة مَوضع الرُّقِيّ إلى الصّعود، كما تقدّم في هذا الفصل.

ومُستَنِم : اسم فاعل من اسْتَنَم؛ أيْ علا، والمعروف تَسَنَّمَ، يُقال : تَسَنَّمَ الحائط؛ أيْ علاه، وتَسَنَّمَ البعير النّاقة : ركبها. وقوله تعالى : ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾[2]. قالوا : هو ماءٌ في الجنّة سُمِّي بذلك لأنّه يجري فوق الغُرَف والقصور. وماءٌ سَنِمٌ على وجه الأرض. وتَسْنيمُ القبر : ضدّ تسطيحه. وأَسْنَمَ الدخانُ : ارتفع. وبعيرٌ سَنِمٌ : عظيم السَنام. ونبتٌ سَنِمٌ: مرتفعٌ خرجَت سَنَمَتُهُ، وهو ما يعلو رأسَه كالسُنبُلِ. والسَنَامُ : واحد أَسْنِمَةِ الإبل. وسَنَامُ الأرض : نَحْرُها ووسَطُها. وأَسْنُمَة، بفتح الهمزة وضم النّون: أَكَمَة معروفة بقُرب طَخْفَة[3].

الخَفْض : قيل : ضدّ الرفْع، وهو الانحطاط. وقال الجوهري : «الخَفْضُ : السَيرُ الليِّنُ؛ ضدّ الرفْع. يُقال : بيني وبينك ليلةٌ خافِضَةٌ؛ أيْ هيِّنةُ السّيرِ. وخَفْضُ الصّوتِ : غَضُّهُ. وخَفِّضْ عليك القولَ، والأمر؛ أيْ هَوِّنْ. والخَفْضُ والجرُّ عند النّحاة بمعنىً. وهما في الإعراب كالكسر في البناء. والانخِفاضُ : الانحطاطُ. والله يَخْفِضُ ويرفعُ؛ أيْ يَضَعُ»[4].

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2341/6. مادة دنا.

(2) سورة المطففين : من الآية 27.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1954/5. مادة سنم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1074/3. مادة خفض.

مِثْلَ : كلمة تسوية. يُقال : مِثْلُهُ ومَثَلهُ، كشِبْهُهُ وشَبَهُهُ. وقولهم : هو مُثَيْلُه، وهم أُمَيْثَالهم؛ يريدون تحقير المُشَبَّه والمُشَبَّه به[1].

المُفْرَد : الّذي لا يماثله أحد في جنسه، كأنّهم أفردوه؛ لِما بان عنهم بصفته[2].

أَعْلاَمُ القوم : ساداتهم، الواحد عَلَم.

كَيْ : مخفّفة. قال الجوهري : «جوابٌ لقولهم : لِمَ فعلت كذا؟ فيقول : كَيْ يكون كذا. وهو للعاقبة كاللاّم، وينصب الفعل المستقبَل»[3].

وقال غيره : معناها التّعليل، وتكون جارّة في لغة مَن قال[4] : كَيْ مَا[5] فعلتَ. فإذا وقفت على اسم الاستفهام، قلتَ : كَيْمَهْ، كما يُقال : لِمَهْ، وهؤلاء أجروها مجرى حرف الجرّ، والفعل بعدها منصوب بـ "أنْ" مُقدَّرة، و"أنْ" و"الفعل" بتأويل مصدر مخفوض بها، وتكون ناصبة في لغة مَن قال : لكي أسير معك. فأدخل عليها حرف الجرّ؛ نحو : لأَنْ أَسِيرَ. فهي مصدريّة، تُؤوّل مع الفعل بمصدر مخفوض باللاّم[6].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1816/5. مادة مثل.
(2) سبق توثيقه.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2477/6. مادة كوى.
(4) أي تقولها سائلاً عن العلة.
(5) في شرح التسهيل لابن مالك : كَيْ مَ. انظر : 149/3.
(6) انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 149/3.

حاز الشّيء يَحُوزه حَوْزًا : أيْ ضمّه إلى ملكه. وقال الجوهري : «الحَوْزُ : الجمع. وكلّ من ضمَّ إلى نفسه شيئاً فقد حَازَه حَوْزاً وحِيازَةً، واحْتازَهُ أيضاً»(1).

الفَخَار - بفتح الفاء - مصدر فَخَرَ يفخَر فَخْرا وفَخَارا : وهو المتمدّح. وبالكسر، مصدر فَاخَرْته مُفاخَرة وفِخَارا. والفَخْرُ، والفَخَرُ، والافْتِخَار؛ كنَهْر، ونَهَر. وفَخَرَ وافْتَخَرَ، وتفاخَرَ القومُ. والفَخيرُ : الّذي يُفاخِرُكَ، ومثاله الخَصيمُ. والفِخِّيرُ : كثير الفَخْرِ؛ كالسِكّيرِ. والتَفَخُّرُ : التعظُّم والتكبُّر. ومُتَفَخِّرٌ مُتَفَجّس. وفاخَرتُه فَفَخَرْتُهُ أفْخُرُهُ فَخْراً : كنت أكرم منه أباً وأمًّا. وأفْخَرْتُهُ على فلانٍ : فضَّلته عليه في الفَخْرِ. وكذا فَخَّرْتُهُ عليه تَفْخيراً. والمَفْخَرَةُ بفتح الخاء وضمّها : المأثُرةُ. وفرسٌ فَخورٌ: عظيمُ الجُرْدانِ. ونخلةٌ فَخورٌ : عظيمةُ الجِذعِ غليظة السَعَفِ. وناقةٌ فَخورٌ : عظيمة الضَرعِ ضيّقة الأحاليل(2).

مُشتَرَكٍ : يصحّ أنْ يُضبط بكسر الرّاء صفة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أيْ غير مشترِك في ذلك الفخار مع غيره، وبفتحها صفة للفَخار؛ أيْ فَخار غير مشتَرَك فيه؛ أيْ لا شركة لأحد فيه معك. فهو اسم فاعل على الأوّل، واسم مفعول على الثّاني، وكلاهما مِن اشْتَرَك، إلاّ انّه لَمّا لم يكن متعدّيًا، كان اسم المفعول منه مقدّرًا معه: في أيّ مشترك فيه.

وشَريكٌ وشُرَكاءَ وأَشْراكٍ، والمرأةُ شَريكَةٌ، وجمعها شَرائِكٌ. وشارَكتُه : صرتُ شَريكَهُ. واشْتَرَكْنا وتَشارَكْنا في كذا. وشَرِكْتُهُ في البيع

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 875/3. مادة حوز.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 779/2. مادة فخر.

دينَ ولا نِحْلَةَ. قال[1] : وَهَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وكَفورُ.. و : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[2]؛ أيْ خيرَ أَهْلِ دينٍ، وقال النّابغة :

حَلَفْتُ فلم أَتركْ لنفسكَ رِيبَةً   وهل يَأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائِعُ[3]

(1) في الصحاح : قال الشاعر. ولم أقف على تمام هذا البيت ولا على قائله.

(2) سورة آل عمران : من الآية 110.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1863/5. مادة أمم.

التَّفْسِيْرُ

[مقام الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرّفيع]

لمّا مدحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بما مدحه به قبلُ؛ مخبرًا عنه على سبيل الغيبة، وختم تلك المدائح بأعلاها قدرًا باعتبار ما ذكرَ منها؛ وهو القرآن العظيم، وكان المدح به يوجب للممدوح الرّتبة العليا؛ الّتي لم ينلها غيره، كأنّ الأوصاف انتهت بحسب مقدور المادح، لا بحسب قدر الممدوح، فإنّ مدائحه لا تتناهى في نفسها، أقبل عليه بالخطاب مستتبعًا لخطابه ما يليق من الأمداح الّتي يُواجَه بها الممدوح، لأنّ المتقدّمة بتقدير غيبته معرّضًا أو مفصحًا بعد ذلك يطلب حاجته منه، فقال : "يا خير.." البيت؛ أيْ يا أفضل كلّ مخلوق قصدَ طالبُوا المعروف ساحة منزله؛ حالة كونهم ساعين سعيًا؛ أيْ مُجدّين في المشي استعجالاً لتحقيق ما تعوّدوا منه من الظّفر بالمطلوب وأمن الخيبة، وحالة كونهم راكبين فوق ظهور النّوق الشّديدة الوطء لقوّتها، حتّى أنّها ترسم في الأرض بمَشْيها آثارًا ظاهرة، كلّ ذلك لتيقّن حصول البغية سريعًا، والرّجوع بالحاجة في أقرب وقت، وأيضًا لكثرة العافين، إذْ هم كلّ المخلوقين، فلا يسع ذا الهمّة إلاّ الاشتداد والسّرعة إليه لتحصيل أفضل المآرب، وإنْ كان بحر عطائه لا ينتقص، غير أنّ في المسارعة مزيد اعتناءٍ؛ ﴿سَابِقُوٓاْ﴾[1]، ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾[2]. وهذا يتناول كلّ من كان يهاجر إليه في حياته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لحوائج الدّنيا والآخرة، ومَن يقصد زيارته

---

(1) سورة الحديد : من الآية 21.

(2) سورة آل عمران : من الآية 133.

بعد مماته، ومَن يبادر إلى اتّباع سُنّته، وابتغاء مرضاته، ومَن يحجُّ ويعتمر، ومَن يكثر من الصّلاة والسّلام عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا، كما يحبّ ربّنا ويرضى.

وابتدأ بقوله : "سَعْيًا"؛ لأنّه أدلّ على الاعتناء بظهور الخدمة والاعتمال، ولأنّه أقرب للسّرعة، بحيث لا يَلْوِي على شيء، ولا يحبسه اشتغالٌ بتحصيل آلة أو نحوها، ثمّ ثنّى براكبي النّوق القويّة الّتي ترسم آثارًا في الأرض لشدّة وطئها، فإنّها أيضًا أرجى للوصول سريعًا من الّتي تبطئ، حتّى لَرُبّما فات المقصود الأهمّ، واقتدى بقوله تعالى وجلّ : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[1]. أو يكون السّعي للقريب، والرّكوب للقاصي، كما دلت عليه الآية.

وقوله : "وَمَنْ هُوَ.." البيت؛ الظّاهر عطف "مَن" على "خير"؛ أيْ ويا مَن هو الآية الّتي هي أكبر الآيات لِمَن يعتبر، فيتأمّل ويتفكّر، فإنّه - مع توفيق الله تعالى - يعلم بأوّل نظرٍ أنّه خير خَلْق الله، وأنّ بَعْثه إلى الخلائق المغمورين في الضّلالة والجهالة - وقد عمّ الكفر، فلا ذاكرًا لله - كالبدر الطّالع على أقوام قد تحيّروا في الظّلماء، وارتكبوا كلّ عمياء، فإنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جاء بالإخراج من الظّلمات إلى النّور، فدلّ على الله، وعرّف بالله، وأتى بما لا يُنال بتعليم واكتساب، إلاّ بتخصيص من العزيز الوهّاب، سِيَّما مَن نشأ بين أقوام؛ بلغ من جهلهم أنْ عبدوا الأنصاب، وجحدوا إلهية ربّ

---

(1) سورة الحج : الآية 27.

الأرباب، فجاء - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالبيان الواضح والبرهان اللاّئح، ورفضِ الحياة الدّنيا، وإيثارِ الآخرة على الأُولى.

وحقيقٌ لمَن بلغ - في الآية - إلى هذه المنزلة والدّلالة على الله، أنْ يكون نعمة عظيمة، لا أعظم منها عند العقلاء ذوي البصائر، المغتنمين ما يحصل لهم في الزّمان الآخر، فلذلك قال : وَيَا "مَنْ هُوَ النّعْمَة العُظْمَى لمُغْتَنِم"؛ أيْ لمُغتنم ما عند الله من السّعادة الأبدية. وعلى هذا التّقدير فليس قوله : "وَمَن هُو النّعْمَة.." إلى آخره كالتّأكيد لقوله : "وَمَنْ هُوَ الآيَة.." إلى آخره، كما ظنّ بعضهم.

وأجاز بعضهم أنْ يكون "وَمَن هو" في الموضعَين معطوفًا على "مَن" في قوله : "يَا خَيْرَ مَنْ.."، فإنْ عُطف على "خَيْر" كما هو الظّاهر، كانت "مَن" واقعة عليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وحده، واقتضى المعنى أنْ لا آية كبرى ولا نعمة عظمى إلاّ هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستُفِيد هذا الحصر من تعريف المبتدأ والخبر. وإنْ عُطف على "مَن"، فالتّقدير : ويا خَيرَ مَن هُو.. فيكون المراد بـ "مَن هو الآية" جنس متعدّد، ويقتضي المعنى أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خير ذلك الجنس، ويشمل النّبيّين والملائكة صلوات الله وسلامه عليهم.

وكَون النّبيّين آية كبرى ظاهرٌ؛ لمشاهدة المكلّفين ذلك، وكَون الملائكة كذلك، هو أيضًا ظاهرٌ؛ لظهور ذلك للمرسلين، فإنّهم يشاهدون منهم العجائب، ولحصول العِلم بذلك للأمم بإخبار أنبيائهم، فيُستفاد من كلام النّاظم تفضيله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

[تحقيق معنى الحرم الّذي أُسرِي إليه الرّسول عليه السلام]

وقال بعضهم : «الظّاهر أنّه أراد بـ "الحَرَم" الثّاني البيت المعمور، لما جاء أنّه يطوف به من الملائكة كلّ عام خَلْق كثير». انتهى. وهو فاسد من أوجه :

الأوّل : أنّه شرحٌ مخالف لما صُرّح به في القرآن؛ قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾[1].

الثّاني : أنّ تفسيره بالمسجد الأقصى يوجب كَون "إلى" مستعملة في حقيقتها من الغاية، فإنّ السّري إنّما عُهِد استعماله في المسير في الأرض، وأمّا ما بعد ذلك من العروج إلى السّماء، فمُستفاد من قوله : "وبِتَّ تَرْقى.." البيت. وأمّا إنْ فسّر بالبيت المعمور، "فإلى" ليست للغاية حقيقة؛ لأنّه لم ينته إلى هناك، بل في بعض طرق أحاديث الإسراء : «**ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ**»[2]، «**ثُمَّ ظَهَرَ فِي مُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلاَمِ**»[3]. فهذا يدلّ على أنّه لم ينته إلى البيت المعمور، بل جاوزه.

الثّالث : أنّ قوله : "وبِتَّ تَرْقَى" يكون على هذا التّفسير تكرارًا. إلاّ أنّ هذا المُفسّر ذكر أنّ نسخته : "وَأَنتَ تَرقَى". قال :

---

(1) سورة الإسراء : من الآية 1.

(2) رواه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا في الإيمان. بَاب الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ.

(3) رواه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا في الإيمان. بَاب الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ.

قدّمناه. وليس وجه التّشبيه إلاّ قطع ذاتٍ يلازمها النّور مسافةً في ليلٍ مظلم، وإلى وجه التّشبيه أشار بقوله: "كَما سَرَى البَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ".

وخرج من هذا أيضًا أنّ من فوائد قوله : "ليلاً" - مع ما تقدّم - ذكره إفادة سَرْي المنير في الظّلم، ولخفاء هذا المعنى على بعضهم، قال: «إنّ قوله: "ليلاً"، وقوله : "في داج من الظّلم" حَشْو؛ لأنّ السّري لا يكون إلاّ ليلاً، وسَرْي البدر لا يكون إلاّ في داج من الظّلم، فقوله : "في داج من الظّلم" قافية مستدعاة. وقد تقدّم تفسيرها». انتهى.

[ذكر المعراج]

قوله : "وبِتَّ تَرقَى.." البيت؛ أيْ وبتَّ ليلة إسرائك من مكّة إلى بيت المقدس - بعد وصولك إلى المسجد الأقصى - تصعد إلى أنْ بلغت سماء الدّنيا، ثمّ في السّموات؛ سماءً بعد سماءٍ، إلى أنْ نِلْتَ وبلغتَ منزلة شريفة، نِسْبَتُها - فيما يمكن وصول منازل البشر إليه من المحلّ الّذي لا يصلون إليه بمقتضى إرادة الله سبحانه وتعالى، وما سبق في أزل علمه - كمِقدار : ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[1]. وهذا التّنويع إنّما هو بحسب ما يَحْكُم به مَن أَدْرَكَ ذلك، أو يَقْدِر أنْ يدركه مِن المخلوقين، لا بالنّسبة إلى عِلم الله تعالى، وهذا باعتبار ما في الآية، وإلاّ فكلام النّاظم ليس فيه ﴿أَوْ أَدْنَى﴾. وهذا التّقدير الّذي ذكرته في الآية ممّا فتح الله به عَلَيَّ، وسترى بعض ما قال النّاس في ذلك إنْ شاء الله تعالى.

فالتّقدير في كلام النّاظم : إلى أنْ نِلتَ منزلة محلّها من المكان الّذي شرّفه الله تعالى - كالعرش مثلاً أو غيره - ممّا لم يُقدِّر سبحانه وتعالى أنَ يناله بشرٌ بعدُ من نحو قاب قوسين، حالة كون تلك المنزلة - الّتي نال - لم تُدرك ولم تُطلب، إذ لا يُطلب إلاّ ما يمكن إدراكه. ويحتمل أن يكون قوله : "لم تُدرك ولم تُرَم" من صفة ذلك المكان الّذي لا يدركه أحد. إلاّ أنّ التّقدير الأوّل أمدح لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذْ فيه التّنصيص على أنّ منزلته لم تدرك ولم تُطلب بإدراك، بخلاف التّقدير الثّاني؛ فإنّه لا يدلّ إلاّ على أنّ ذلك المكان الّذي قرب

(1) سورة النجم : من الآية 9.

منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمقدار قاب قوسين، لم يُدرك ولم يُرم، وأمّا منزلته الّتي وصل إليها، فليس في الكلام ما يدلّ على أنّها لم تُدرك ولم تُرم، وبسط كلامه على التّقدير الثّاني : أنّ منزلته - الّتي وصل إليها - هي منزلة لم تُدرك ولم تُرم قاب قوسين.

قال بعضهم : «الإدراك منفي عن المستقبل نفيه عن الماضي، وأمّا قوله : "لم تُرم"، فلعلّه سكت عن المستقبل، لأنّه لا يعلم نفي رجاء هذه المنزلة إلاّ بالوحي، فلعلّ ممّن ينكر دين الإسلام، ويقرّ بالنبوّة، مَن يجوّز أرفع من تلك الرّتبة، فلِذا لم يجزم بنفي الرَّوْم عن المستقبل». انتهى.

قلتُ : ولا وجه لتفريقه بين "لم يُدرك" و"لم تُرم"، فإنّ "لم" إنّما تنفي الماضي، فلم يتعرّض النّاظم لنفي المستقبل في واحد منهما، اكتفاءً بأنّ هذا كلام في تفضيله على مَن ثبتت نبوّته، ولأنّه لمّا ثبت بالبرهان كونه نبيًّا، لزم صدقه قطعًا، وقد أخبر أنّه لا نبيّ بعده، فلا يشتغل النّاظم بالإخبار عن المستقبل؛ لاستحالة تصوّر ذلك فيه.

أَدْنَى، فَأَوْحَى إليه بِمَا شَاءَ. وذكر حديث الإسراء[1]. وعن محمّد بن كعب : «دَنَا مُحَمَّدُ مِنْ رَبِّهِ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ»[2].

وقال جعفر بن محمّد : «أَدْنَاهُ رَبُّهُ مِنْهُ حَتَّى كَانَ مِنْهُ كَقَابَ قَوْسَيْنِ»[3]. وقال جعفر بن محمّد : «وَالدُّنوُّ مِن اللهِ لا حِدّ لَه، وَمِنَ العِبَادِ بِالحُدُودِ[4]. وَانْقَطَعَتْ الكَيْفِيَةُ عَنِ الدُّنوِّ، أَلاَ تَرَى كَيفَ حُجِبَ جِبرِيلُ عَنْ دُنوِّهِ، وَدَنَا محمّدُ إلِىَ مَا أُودِعَ قَلْبُهُ مِن المَعرِفَةِ والإيمَانِ، فَتَدَلَّى بِسُكُونِ قَلْبِهِ إلى مَا أَدْنَاهُ، وَزَالَ عَن قَلْبِهِ الشَكُّ والارتِيَابُ»[5].

وهذا الّذي قاله جعفر بن محمّد؛ هو تأويل الدّنوّ المضاف إلى الله تعالى، فهو ليس بدنوّ مكان، ولا قرب مدى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإنّما هو دنوّ تشريف وتقريب منزلة؛ نحو ما أُوِّل به قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»[6]. في أحد التّأويلات. ونحو ما أوِّل به : «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا..» الحديث[7]. والمرضيّ ما ذكرناه أوّلاً. والله الموفّق. وقيل : المراد بالقوسَين قوسَا الحاجبَين.

---

(1) انظر صحيح البخاري في التوحيد. باب قَوْلِهِ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

(2) انظر الشفا. القاضي عياض : 205/1.

(3) انظر الشفا. القاضي عياض : 205/1.

(4) أي الدّنوّ من العباد بالحدود.

(5) انظر الشفا. القاضي عياض : 205/1.

(6) رواه البخاي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعا في الجمعة. بَاب الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ.

(7) رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في الدعوات. بَاب فِي حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وقَالَ الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قلتُ : إمّا لأنّهم اطّلعوا على منزلته هذه بالوحي حال حياتهم، فحكموا بتفضيله عليهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ .. ﴾الآية[1]، وكان ذلك في ليلة الإسراء بأرواحهم خاصة، أو بها مع أجسامهم، كما يدلّ عليه ما جاء في حديث الإسراء؛ من أنّ جماعة الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أثنوا على الله - عزّ وجلّ - في تلك اللّيلة، وكان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آخرهم في ذلك؛ فأثنى على مولاه - سبحانه - بما ألهمه، فقال الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - عند ذلك: «بِهذَا فَضَلَكُم مُحمّدُ». فهذا اعتراف منهم بالتّفضيل. أو يكون المعنى بحسب حكم الحاكم؛ أيْ ويحكم المطّلع على ما نِلْتَ من المنزلة باستحقاق تقدّمك جميع الأنبياء في الشّرف.

ويترجّح أنّ مراده التّقديم بالشّرف والمنزلة، لا في الصّلاة؛ لقوله : "تقديمَ مخدومٍ على خَدَمِ"؛ أيْ قدّموك تقديمًا مثل تقديم مخدوم - وهو الرّئيس - على خُدّامه، على أنّه لا يبعد هذا التّشبيه كلّ البعد في إمامة الصّلاة، لأنّ حال الإمام في تقديمه بالمكان على المأموم، كحال المخدوم على الخادم.

ويحتمل أنْ يكون إخباره عن تقديم جميع الأنبياء له إنّما هو بالاستدلال، وذلك أنّ الّذين قدّموه - وهم الّذين في السّموات المُسَمَّون في حديث الإسراء – قد قدّموه لِما رأوا من فضائله عليهم، وهم

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 81. والآية بتمامها : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

إذا لم تدع في صعودك غاية لمُستبق؛ أيْ لمبتدر ليسبق غيره، كائنة تلك الغاية من القرب إلى المكان الّذي لا يدركه بشرٌ أو مخلوق، ولم تدع أيضًا مصعدًا لمُستَنِمِ؛ أيْ طالب العلوّ في الأمكنة، وذلك كلّه بِسَبْقك إلى تلك المنزلة.

فـ "مِن" في "مِن الدّنوّ" لبيان الشّأو، وبعضهم يراها سببيّة، فإنّ منعه غيره من تلك المنزلة الّتي نالها؛ إمّا بجَعْل حاجز بينها وبين غيره، وإمّا بَسَبْقيته إليها واشتغالها؛ بحيث لا يجد غيره إليها سبيلاً، فبيّن النّاظم أنّ السّبب في أنْ لم ينلها غيره هو مِن أجل دنوّه هو، لا من أجل حاجز حَجَز الغير عنها.

قلتُ : ومِن الحاجز بينهم وبينها اشتغالُه إيّاها، فهما بمعنىً واحد.

لا يُقال : كيف يكون شغله للمرتبة المذكورة - وهو متأخّر - مانعًا لحلول غيره فيها، وهم متقدّمون عليه في الوجود؟ لأنّا نقول : مُنِعوا منها بالحُكم له بها، فهو حاجز معنويّ. وفي شرح بعضهم : مكان "مستَنِم" "مُسْتَلِم" باللاّم. قال : «والسّين أصلية، والتّاء زائدة؛ "مُفْتَعِل" من "الافْتِعَال" من السُّلّم؛ الّذي هو المَرْقَى». وكأنّ المعنى عنده : ولم تَدَع مَرقى لطالب الصّعود في السُّلَّم.

وقوله : "خَفَضْتَ.." البيت؛ أيْ فلمّا لم تَدَعْ مَرقَى لطالب عُلوّ، خَفضتَ كلّ مقام؛ أيْ صيّرت كلّ مقام منخفضًا - بالنّسبة إلى مقامك المرتفع - عن مقام كلّ مخلوق، وإنْ كان ذلك المقام المنخفض مرتفعًا في نفسه، وإنّما انخفض بالنّسبة إلى مقامك، وكان ذلك الخَفْض منك للمقامات حين نُوديت بالرّفع؛ أيْ ناداك الله فرفع منزلتك على كلّ منزل من الشّرف - وهو المراد بالمقام - نداءً مصاحبًا لرفع حالك، كما

[العلوم الّتي لم يُفشها الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للبشر]

فإنْ قلتَ : وَصْفه لهذا السرّ بأنّه مُكتتم أيّ اكتتام لا خصوصية له؛ لأنّه من أنواع الوحي، والوحي كلّه كذلك، هو مستتر إلاّ عمّن أُوحِي إليه؛ أنْ لا يطلع عليه غيره.

قلتُ : الوحي كما نصّ – تعالى - عليه على ثلاثة أقسام : بلا واسطة؛ بأنْ يخلُق الله – تعالى - في قلب المُوحى إليه عِلمًا ضروريًّا بإدراك ما شاء الله إدراكه من الكلام النّفسي القديم القائم بذاته سبحانه وتعالى، وهذه حالة محمّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليلة الإسراء على مذهب طائفة[1]. أو بواسطة خَلْق أصوات في بعض الأجسام، كحال موسى صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلّم؛ إذ نُودي من شاطئ الوادي الأيمن. أو بإرسال مَلَك، وما يُدركه المَلَك من النّوع الأوّل، وهذا غالب أحوال الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾. وإلى الثّاني بقوله : ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾. وإلى الثّالث بقوله : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[2]. والثّاني قد يطّلع عليه غير الموحى إليه، ولذا قيل : «إنّ السّبعين سمعوا الكلام حين مضوا إلى الميقات، كما سمعه موسى عليه السّلام»[3].

---

(1) قال ابن حجر عن حديث الإسراء في البخاري : «هَذَا مِنْ أَقْوَى مَا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كَلَّمَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ». انظر فتح الباري : 216/7.

(2) سورة الشورى : من الآية 51.

(3) انظر تفسير القرطبي : 1/2.

والثّالث يشارك فيه الملَك . والأوّل مكتتم أيّ اكتتام.

قال بعضهم : «هذا السرّ الّذي وقع، لا بدّ أنْ يخبر به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النّاس، وأمّا أنّه لم يُطّلَع عليه حتّى الآن، فلا أحفظه، ويبعُد وقوع مثله، وبتقدير وقوعه، فلا كبير فائدة في الإخبار بوقوع سرّ لم يُعلَم، فإنْ قُدِّر أنّه أخبر به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يومًا ما، فقد صار كغيره ممّا أُوحِي إليه في ذلك المقام ممّا كان سرّا، ثمّ أعلمه النّاس». انتهى.

قلتُ : بل هناك علوم لا تعدّ وأسرار لا تُحصى، لم يفشها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأحد من البشر، إلى أنْ مات بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ لا يُطيق حملها غيره، وكيف لا، وهو مدينة العِلم، وإذا كان باب العِلم، عليّ - رضي الله عنه - يقول : «لو شِئتُ أن أُفسّرَ فاتحةَ الكتَابِ بوِقر سَبعينَ بَعيرًا»[1]. وقد فسّر ليلة ترجمانُ القرآن ابن عمّه عبد الله بن عبّاس - رضي الله عنهم - حروف كلمة الحَمْد من بعد العشاء إلى انفجار الصّبح، ولم يفرغ منها، وكان يضرب صدره بيده يقول : «هَا هُنَا عِلْمٌ، لَو وَجَدتُ لَه حَمَلَة، أَتَرَى مَدِينَةَ العِلمِ الّتي لاَ نِهايَةَ لهَا، كَما أَنَّ المُتمَدِّنَ فِيها الّذِي هُو العِلم، كذَلكَ يُحاطُ بِسِكَكِهَا وَأَزِقّتِها، هَيهَات»[2].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**عَلَّمَنِي رَبِّي لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ عُلُومًا شَتَّى، فَعِلْمٌ أَخَذَ عَلَيَّ**

---

(1) سبق تخريجه.

(2) لم أقف عليه مسندًا.

[الفخار الّذي حازه الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

ولمّا كانت هذه المراتب العظيمة له - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بلغت الغاية القصوى في الجلال والنّهاية العظمى في الكمال، أردفها النّاظم بقوله - مخاطبًا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "فَحُزتَ.." البيت؛ أيْ فبسبب ما نِلتَ من تلك الرّتب حُزتَ كلّ فَخار وتعظيم يليق بالمخلوق؛ أيْ حصل في حَوْزك غير مشترَك فيه - بفتح الرّاء - أيْ لا اشتراك فيه معك، أو بكسرها؛ أيْ غير مشترِك فيه مع غيرك.

"وجُزتَ"؛ أيْ قطعتَ، أو تجاوزتَ كلّ مقام غير مزدَحَم - بفتح الحاء -؛ أيْ لا زحام فيه؛ لانفرادك به، أو بكسرها؛ أيْ لا تُزاحِم فيه غيرَك، أو لا يزاحِمُك فيه غيرُك، فراء "مُشترك" وحاء "مُزدحم" يجوز كسرهما وفتحهما، وكسر أحدهما وفتح الآخر، وبالعكس.

فإنْ قلتَ : قوله : "كُلَّ فَخَارٍ" و"كُلَّ مَقَامٍ " يقتضي أنّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يشارَك في كلّ فردٍ فردٍ من أفراد الفخر، ولم يزاحَم في كلّ مقام من مقامات الشّرف، وهذا يقتضي أنْ لا نبيّ غيره، ولا وليّ إلاّ هو، وليس كذالك.

قلتُ : الظّاهر أنّ "كلّ"؛ المراد بها الكلّ المجموعي؛ نحو : كلّ النّاس يحمل الصّخرة العظيمة؛ أيْ مجموعهم، لا الإفرادي؛ نحو : كل النّاس يشبعه رغيف؛ أيْ كلّ فردٍ فردٍ منهم، والمعنى في البيت : أنّ مجموع الفخر لم يَحُزه بلا اشتراك إلاّ أنت، ومجموع المقامات الشّريفة لم يحزها بلا ازدحام سواك، وإنْ كنتَ شُوركت في أفراد الفخر، وزُوحِمت في آحاد المقامات، لكنّ مجموع ذلك لم ينله إلاّ أنت.

وخصّ الحَوز - الّذي هو معنويّ - بالفَخار الّذي هو كذلك، والجَواز - الّذي هو حقيقة في المشي بالأقدام - بالمقام الّذي هو حقيقة في الحسّي، وهو حسن، وإنْ كان يحسن أنْ يُراد بالمقام والجَواز المعنويّ أيضًا، إلاّ أنّ هذه المعاملة باعتبار الأصل.

وقوله : "وجَلَّ.." البيت؛ قيل : «أصلُ جَلَّ جَلُلَ على "فَعُلَ" - بالضمّ - للتعجّب؛ أيْ ما أجلّ ما أُوليت من الرّتب وأعظمها. وكذا "عَزَّ"؛ أصله عَزُزَ؛ أيْ ما أعزّ ما أُوتيت من النّعم، وأصله "فَعَلَ" كضَرَب، ثمّ حوّل إلى "فَعُلَ" بضمّ العين لقصد التّعجّب، إلاّ أنّه خفي الوزن بالإدغام، فهو كقوله[1] :

حَبَّ بالزَّوْرِ الَّذِي لا يُرَى   مِنْهُ إلاَّ صَفْحَةٌ أو[2] لَمَامُ»

قلتُ : ولا بأس بهذا، إلاّ أنّ ذلك إنّما يطّرد في "فَعُل" الحَلْقِيّ العين، كذا ذكر في "التّسهيل"[3]، ونُوزع في ذلك أيضًا.

قيل : والمراد بـ "الرّتَبِ" الرّئاسات العقليّة، وبـ "النّعم" اللذّات الجسمانيّة، وهذا البيت كالنّتيجة عن الّذي قبله، فإنّه إذا حَاز كلّ فَخار غير مُشترَك، فقد جلّ مقدار ما وُلِيَ من الرّتب، وإذا جاز كلّ مقام غير مزدحَم، فقد عزّ أنْ يُدرك - أيْ يُلحق - ما أَوْلاه الله من النّعم، وعلى هذا لا يتعيّن أنْ يريد بـ"النّعم" اللذّات الجسمانية، بل هي راجعة إلى المقامات.

---

(1) هو الطرماحُ. انظر الكامل. المبرد : 209/2.

(2) ويروى "عن" بدل أو.

(3) انظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك : ص 197.

وقد يكون "عزّ" هنا بمعنى النّفي؛ أيْ ما أدرك أحدٌ ما أُولِي محمّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من النّعم، كما قالوا في : "قَلَّ رجلٌ يقولُ ذلكَ"؛ أيْ مَا رجل يقوله[1]. وعزّ مرادف لِقَلَّ، وإنّما قلنا هذا؛ لِما قُرّر أنّ منزلته لم تُدرك، فلو تركنا "عَزَّ" على حقيقته، وأنّه بمعنى "قلّ"، لأعطى مفهومه أنّ هناك مَن شاركه في مثل مَقامه، وإنْ قلّ.

فإنْ قلتَ : إذا حملت "النِّعَم" على اللذّة الجسمانية، لم يلزم ذلك. قلتُ : إلاّ أنّ هذه اللذّات؛ إنْ أرِيد أنّها كانت له في الدّنيا، فهو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنّما كان على الضدّ من ذلك؛ لصَرف همّته عن لذّات الدّنيا بالاشتغال بأمور الآخرة كما تقدّم في قوله : "وشَدَّ مِن سَغَبِ"، وإنْ أرِيد أنّها تكون له في الآخرة، فينبغي أيضًا أنْ لا يُشارك فيما أُوتِي من مجموعها، وأيضًا فهي ثمرة مقامه المختصّ به في الدّنيا، وإذا كان المَقام مختصًا، فثوابه مختصّ. ولم يجعل بعضهم هذا البيت كالنّتيجة عن الّذي قبله؛ لكونه وقع في نسخته مقدّما، والّذي قبله مؤخّرا، وقال : «إنّ هذا البيت توجّهٌ إلى استعظام ما ناله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من غير تعرّض : هل نال غيره مثل ذلك أم لا؟ والّذي قبله على العكس؛ أيْ نصّ فيه على حَوزه كلّ فخر وكلّ مقام بلا شركة، ولم ينصّ على أنّ ذلك ممّا يُستعظم ويُتعجّب منه أم لا». انتهى.

قلتُ : لا شيء أبلغ في الاستعظام والتعجّب من الإخبار بحَوز كلّ فَخار، والاختصاص به.

---

(1) انظر النحو الوافي. عباس حسن : 317/2.

[تفضيل أمّة الإسلام على سائر الأمم]

ولمّا مدحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مواجهةً بما يتضمّن تفضيله على سائر الأنبياء، فرّع على ذلك أنّ أمّته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أفضل الأمم، فقال مخبرًا عن هذه الأمّة باختصاصها بالبُشرى؛ على وجه يتضمّن دخوله فيهم، والإخبار عن نفسه بأنّه منهم : "بُشرَى لنا مَعشَرَ الإسلامِ"؛ أيْ أخص معشر أهل الإسلام - وهم الّذين آمنوا بهذا النّبيّ الكريم محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتبعوه - بالبشارة العظمى، والخير الكامل؛ لأنّ لنا من العناية - أي عناية الله بنا؛ في أنْ جعلنا من أمّة هذا النّبيّ الشّريف - ركنًا قويّ الأساس والبنيان، لا ينهدم - بفضل الله ومنّته - إذا انهدمت الأركان. أماتنا الله على سُنّته واتّباع ملّته بمنّه وفضله.

وقيل : «إنّ هذا البيت مرتّب على جميع ما مدحه به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من لدن قوله : "ظَلَمْتُ سُنّةَ.." إلى هنا».

قلتُ : وليس ببعيد. ثمّ لمّا كان في قوله : "مِنَ العِنَايَةِ" إبهامًا ما، أو دعوى من غير دليل، فسّر ذلك، أو ذكر دليله بقوله : "لَمَّا دَعَا اللهُ.." البيت؛ أيْ لمّا سَمَّى اللهُ نبيّنا محمَدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو داعينا لطاعة الله تعالى، أو لطاعة داعينا؛ إذ طاعته طاعة الله : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] - أكرمَ الرّسل، لزم من ذلك أنْ نكون نحن - من الّذين هم أمّته - أكرم الأمم؛ لأنّ أكرم الرّسل لا يبعث إلاّ إلى أكرم الأمم؛ لأنّ ذلك ممّا يكون به أكرم الرّسل على الله تعالى.

---

(1) سورة النساء : من الآية 80.

وكلامه تضمّن دعوى - أنّ أمّة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكرم الأمم - ودليلاً على ذلك؛ أمّا الدّعوى : ففي البيت الّذي قبل هذا، وهو قوله : "بُشْرَى لَنَا"، وتقريرها أنّه لمّا خصّص هذه الأمّة بالبشرى، كما أفاده الاختصاص في قوله : "مَعْشَرَ الإِسْلاَمِ"، دلّ على أنّهم أكرم النّاس؛ لأنّ هذه البشرى من الله تعالى، ولا يخصّص الله تعالى بالبشرى إلاّ أكرم الخَلْق عليه. وأمّا الدّليل عليها : فقوله : "إِنَّ لَنَا.." إلى آخره؛ فإنّ مساقه مساق التّعليل، فهو من أنواع الاستئناف البياني؛ الجواب عن سؤال سبب الحكم الخاصّ، كأنّه قيل : ما سبب هذه البشرى؟ فقال : لأنّ لنا..

ومعلوم أنّ مَن له من عناية الله تعالى ركنًا لا ينهدم، ولم يحصل ذلك لغيره، فهو أكرم على الله من غيره، لكن في قوله : "بُشْرَى لَنَا" إبهام؛ إذ لم يُدرَ ما تلك البشارة، وكذا في قوله : "لَنَا مِنَ العِنَايَةِ" إبهام؛ لأنّه لم يُدرَ ما تلك العناية، ففسّر ذلك كلّه بالبيت الثّاني، فالبشرى هي النّتيجة في هذا البيت، وهي قوله : "كُنَّا أَكرَمَ الأُمَمِ"؛ كانت أوّلاً دعوى مجملة قبل الاستدلال، وهي الآن نتيجة بعده، والعناية هي كون الله تعالى سمَّى الرّسول الّذي خصّنا به أكرم الرّسل، وهي الدّليل. ولله درّه، لمّا أجمل في الدّعوى، أجمل في الاستدلال - وهو البيت الأوّل - ولمّا فسّر في الدّليل، فسّر فيها؛ لأنّ الدّعوى إنْ كانت مجملة، يمكن الاستدلال عليها مجملاً، وإنْ كان الدّليل مفسّرًا، لم يكن إجمال الدّعوى، ومن هنا قدّم الدّعوى أوّلاً، وأخّر الدّليل، كما هو التّرتيب الطّبيعي في الجَدَل، ولمّا لم يبق إلاّ التّفسير، قدّم ما يستلزم تفسيره، وهو الدّليل، تفسيرها، وهي النّتيجة المدلول عليها.

وقال بعضهم : «قوله : "بُشْرَى" فيها إجمال، تفسيره قوله : "إِنَّ لَنَا"».

قال : «ومن هنا لا يكون "بُشْرَى" دعاء، بل إخبار؛ لأنّه فسّره بالإخبار المحقّق، والدّعاء لا يكون كذلك».

قال : «فأتى بـ "إِنّ لنَا" لتشوّف النّفس إلى تفسير "بُشْرَى"، وهو الوجه في إلقاء الخبر إلى المتشوّف إلى سماعه؛ نحو : ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]؛ لمّا طلب منهم الاستغفار، تُشوّف إلى أنّه هل يجاب استغفارهم؟ فجاء الخبر مؤكّدا. ومنه[2] :

هَـوِّنْ عليـكَ، فـإِنَّ الأُمُـورَ بكَـفِّ الإِلَـهِ مقادِيرُهـا

فإنّه مظنّة لأنْ يُقال : كيف يهون الصّعب؟ فصار الجواب بالفاء و"إنّ"». انتهى.

قلتُ : وما نَظَّر به يدلّ على ما ارتضيناه مِن أنّ قوله : "إِنّ لَنَا" جواب سؤال عن سبب الحكم الخاصّ؛ لأنّه في المثالَين كذلك، وتقديره في الآية الأولى : لِمَ أمر بالاستغفار؟ فقيل : إنّ الله غفور رحيم؛ أيْ وطلب الغفران ممّن هذه صفته ناجح. وفي الثّاني : لأيّ شيء أهوّن الصّعبَ؟ فقال : فإنّ؛ أيْ جزعك وعدم صبرك لا يجدي نفعًا، فإنّ الحكم ليس بيدك، ولا بيد مَن يُغالِب، بل بيد الفعّال لِمَا يريد.

(1) سورة البقرة : من الآية 199.

(2) ينسب هذا البيت لعمر بن الخطاب وللأَعْوَر الشَّنِّيّ ولابن أبي حازم. انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ابن رشيق القيرواني : 33/1.

[أحاديث الإسراء]

ولا بدَّ من ذكر بعض أحاديث الإسراء؛ ليظهر ما تضمّنته من فضله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وفضل أمّته، وإنّما أخّرناها إلى هنا، وإنْ كان اللاّئق بذلك قوله : "سَرَيْتَ"؛ لارتباط هذه الأبيات بعضها ببعض، فقد تقدّم بعض القول فيما يتعلّق بالإسراء.

ومن خصائصه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قصّة الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ..﴾ الآية[1]. وقال تعالى : ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ الآيات[2]. ولا خلاف بين المسلمين في صحّته للقرآن، والأحاديث الصّحيحة تذكر أكملها، ونشير إلى زيادة من غيره.

خرّج مسلم من طريق ثَابِتٌ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «**أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ؛ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ**». قَالَ : «**فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيهم السّلاَم، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام : اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ. قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ. قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَم، فَرَحَّبَ بِي،**

---

(1) سورة الإسراء : من الآية 1. والآية بتمامها : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(2) سورة النجم : الآية 1. والآيات التي تضمنت قصة الإسراء هي من الآية الأولى إلى الآية رقم 18.

خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَخَبَرْتُهُمْ». قَالَ : «فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ : يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. فقَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ». قَالَ : «فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى، حَتَّى قَالَ : يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فتلك خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا، كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا، كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً». قَالَ : «فَنَزَلْتُ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ». ولم يجوّد هذا الحديث أحد عن أنس مثل ما جوّد ثابت[1].

وروى شَرِيكٌ عنه أنّ شقّ بطنه كان مع الإسراء[2]. قيل : «والصّواب أنّ ذلك كان وهو صبيّ». وقد تقدّم لنا بعض ذلك.

ومن الزّيادات في حديث الإسراء الّتي تناسب قوله : "وقَدَّمْتُكَ" في وجه : ما في حديث أبي هريرة : «وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.. فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ»[1].

---

(1) انظر صحيح مسلم في الإيمان. بَاب الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ.

(2) انظر صحيح البخاري في التوحيد. بَاب قَوْلِهِ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

(1) انظر صحيح مسلم في الإيمان. بَاب ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ.

التَوراةِ "مُحَمّدٌ حَبيبُ الرَّحْمَنِ"، وَأَرْسَلْنَاكَ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وَجَعَلْتُ أُمَّتَكَ هُمْ الأَوَّلُونَ، وَهُمْ الآخِرُونَ، وَلاَ تَجُوزُ لَهُم خُطبَةٌ، حَتَّى يَشْهَدُوا أَنّكَ عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلْتُكَ أَوَّلَ النّبيّينَ خَلقاً، وَآخِرِهِم بَعْثًا، وَأَعْطَيْتُكَ سَبْعاً مِن المَثَانِي، وَلَمْ أُعْطِهَا نَبِيّاً قَبْلَكَ، وَأَعْطَيْتُكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ عَرْشِي، لَمْ أُعْطِهَا نَبِيّاً قَبْلَكَ، وَجَعَلْتُكَ فَاتِحاً وَخَاتِماً»[1].

ومنها : أنّ محمّدا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال للنّبيّين : «كُلّكُمْ أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ، وَأَنَا أُثْنِي عَلَى رَبِّي : الحَمْدُ للهِ الّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً للعَالَمِينَ، وَكَافَةً للنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الفُرْقَانَ؛ فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ أُمَّتِي خَيْرَ أُمَّةٍ، وَجَعَلَ أُمَّتِي أُمَّةً وَسَطًا، وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمْ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ، وَشَرَحَ لِي صَدْرِي، وَوَضَعَ عَنّي وِزْرِي، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي، وَجَعَلَنِي فَاتِحًا وَخَاتِمًا». فقال إبراهيم عليه السّلام : «بِهَذَا فَضَلَكُمْ مُحَمَّدٌ»[2].

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرّف وكرّم، كلّما ذكره الذّاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. وفيه زيادات كثيرة يطول تتبّعها.

---

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة عن أبي هريرة. الأثر رقم : 679. وانظر الشفا. القاضي عياض : 183/1. والحديث ضعيف.

(2) رواه البيهقي في دلائل النبوة عن أبي هريرة. الأثر رقم : 679. والحديث ضعيف.

[هل كان الإسراء في النّوم أو في اليقظة؟]

وهل كان الإسراء في النّوم أو في اليقظة؛ أربعة أقوال :

الأوّل : لعائشة - رضي الله عنها - وجماعة؛ أنّه في النّوم، ولذا قالت : «لَمْ تَفْقِدْ بَدَنَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا عُرِجَ بِرُوحِهِ»[1]. ولقوله تعالى : ﴿ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾[2]. لأنّ الرُّؤْيا مصدر لِلْحُلُميّة، ولو كانت يقظة لقيل الرّؤية. ولقوله في حديث أنس ليلة أسري به - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من مسجد الكعبة : «جَاءَهُ نَفَرٌ ثَلَاثَةٌ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عِنْدَ بِئْرِ زَمْزَمَ». وفيه : «وَاسْتَيْقَظَ وَهُوَ فِي مَسْجِدِ الْحَرَامِ»[3]. قالوا : ولا شكّ أنّ هذه رؤيا، وهي حقّ وصدق.

الثّاني : مذهب الجمهور؛ أنّه أسري بجسده في اليقظة، والرّؤيا قد تكون بصريّة،

كقول الرّاعي[4] يَصِفُ صَائِدًا :

فَكَبَّـرَ لِلرّؤْيَـا، وَهَـشّ فُـؤَادُهُ وَبَشّـرَ قَلْبًـا كَـانَ جَمّـا بَلَابِلُـهُ

---

(1) انظر الروض الأنف. السهيلي : 415/2.

(2) سورة الإسراء : من الآية 60.

(3) رواه البخاري عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ في التوحيد. بَاب قَوْلِهِ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

(4) هو الراعي النميري وسبقت ترجمته. والبلابل : شدة الهم والوسواس في الصدر. وورد البيت بهذا اللفظ في الروض الأنف. للسهيلي : 416/3. وأما المحفوظ فهو : فلما رآها كبّر الله وحده.. انظر الفاضل. المبرد: ص 38.

القول الرّابع : أنّه أسري بجسده إلى بيت المقدس في اليقظة، ثمّ عرج بروحه إلى فوق سبع سموات، ولذا استبعد الكفّار قوله : «**أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي لَيْلَتِي هَذِهِ**». ولم يستبعدوا قوله فيما سوى ذلك.

قلتُ : ولعلّهم لم يستبعدوا ما سوى ذلك لعدم علمهم بتلك المسافة؛ أقريبة أم بعيدة، بخلاف ما يعلمون. أو يُقال : اقتصروا على استبعاد ذلك، فيعلم أنّ استبعادهم لغيره أحرى. ويتعلّق بأحاديث الإسراء كلام كثير، تركناه خشية السّآمة.

"يا خَيْرَ"؛ استعمل "يا"؛ الّتي هي لنداء البعيد، إشارة إلى علوّ منصبه ورفعة منزلته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تعظيمًا له؛ نظيره : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾[1]. والتّعبير بالموصول في "مَن" للتّعظيم، وللتّوصّل إلى ذكر الصّلة جملة فعلية؛ ليفيد التجدّد والحدوث، وأنّه تقصده طائفة بعد أخرى، ولبناء الخبر على تلك الصّلة؛ لأنّه طالب ضمنًا أو صريحًا، ولهذا خصّص العافين بالذّكر، وإنْ كانت من نكرة موصوفة، فتنكيرها للتّعظيم. و«أل» في "العافون" للجنس. وإضافة "ساحة" للاختصاص والتّعظيم. وتنكير "سعيًا" للنّوعية. وفائدة ذكر "متُون" التّنصيص على تنويع العافين إلى الماشين والرّاكبين، ولو حذفه لتوهّم أنّه تقسيم في السّاعين، وأنّ منهم من يسعى مطلق السّعي، ومنهم من يسعى أعلى، وأشدّ من النّوق الرُّسُمِ. و«أل» في "الأَيْنُقِ" و"الرُّسُمِ" للعهد. وجمع النّوق جمع قلّة للوزن؛ ولإفادة قلّة هذا النّوع منها : «**النَّاسُ كَإِبِلٍ مائةٍ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيها رَاحِلةً**»[2]. وأفاد كثرتها في نفسها بتحليتها بـ «أل»؛ الّتي للعموم، وبهذا يُعرف كثرة العافين. وجمع "متونها" جمع كثرة، ونعتها بجمع الكثرة، وهما يستلزمان كثرتها.

وفائدة التّعبير بـ "مَن" في "مَن هُو الآيَة" و"مَنْ هُو النّعْمَة" مثلها في "مَن يَمَّمَ". وتعريف المبتدأ والخبر في "هُوَ الآيَة" و"هُو النّعْمَةُ" للحصر.

---

(1) سورة البقرة : من الآية 2.

(2) هو حديث رواه مسلم عن عَنْ ابْنِ عُمَرَ مرفوعا في فضائل الصحابة بَاب قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً.

و«أل» في "الآيَة" و"الكُبْرَى" وفي "النِّعْمَة" و"العُظْمَى" للعهد. وتنكير "مُعتَبِرٍ" و"مُغتَنِمٍ" يحتمل تعظيم النّوعين، وتقليلهما. وليس الشّطر الثّاني من البيت الثّاني كالتّأكيد لشطره الأوّل كما ظنّ بعضهم، وقد تقدّم في التّفسير.

وتنكير "حَرَمٍ" في الموضعين للتّعظيم أو النّوعية. وتنكير "ليلاً" للتّقليل كما تقدّم. وتنكير "داج" للنّوعية أو التّعظيم أو التّكثير، ويدلّ عليه تفسيره بالجمع، فليس "مِن الظّلم" للتأكيد الصّرف لإفادة هذا المعنى. و«أل» في "البدر" للعهد، وفي "الظّلم" للجنس. وتقدّم في التّفسير فساد جعل بعضهم "لَيْلاً" و"في داجٍ من الظّلم" حشوًا. وليس "إلى حَرَم" من وقوع الظّاهر موقع المضمر؛ لأنّ الثّاني غير الأوّل، ولو أضمره، وقال : "إليه"، لكان من باب "عِنْدِي دِرْهَمٌ ونِصْفُهُ"[1]، ويكون من الاستخدام.

وتقدّم فائدة التّعبير بقوله : "بِتَّ". وقال : "تَرْقَى" ولم يقل : راقيًا؛ لإفادة تجدّد المنازل شيئًا فشيئاً. وتنكير "منزلة" للتّعظيم. وقوله : "مِن قابَ قوسَيْنِ" بيان لِما أُبهم في "منزلة"؛ ففي البيت الإطناب. وفيه إيجاز الحذف؛ لأنّ التّقدير : مِن مقدار قاب.. وقوله : "لم تُدرك" تكميل أفاد قصر تلك المنزلة عليه. و"لم تُرم" تكميل التّكميل، وهو من التّرقّي؛ نحو قوله[2] :

خَيْرُ البَرِيَّةِ مِنَ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ وَأَكْرَمُ الخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ

فإنّ الحضر أرفع من البدو، والمنتعل أرفع من الحافي. و"لم تُرم" أرفع في المدح مِن "لم تُدرك".

---

(1) قولهم : عِنْدِي دِرْهَم وَنصفه؛ أَي وَنصف دِرْهَم آخر.

(2) هو الإمام العلامة أبو محمد عبد الله بن زكريا الشقراطيسي. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 347/18.

السّري ومنتهاه، حتّى يُقال هذا من خَرْق العوائد، بل الأمر فيه مجمل، وإنّما أحال على ما عُلم.

وفي قوله : "وبِتّ.." البيت التّرشيح؛ لأنّ "تَرْقى" يدلّ على أنّها منزلة عظيمة، وهي ما وصفها بقوله : "لم تُدرك ولم تُرم"، وهذا المعنى أيضًا من مراعاة النّظير، ويُسمّيه بعضهم "**تشابه الأطراف**"[1]؛ كقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2]. فاللّطيف يناسب الجملة الأولى، والخبير يناسب الثّانية.

وذكر "المنزلة" مع "وقدّمتك.. تقديمَ مخدومٍ على خَدَمِ" من مراعاة النّظير، وكذا في "الأنبياء" و"الرّسل". وفي "قدّمتك" و"تقديم" ردّ الصّدور على الأعجاز، وهما من تجنيس الاشتقاق، وكذا "مخدوم" و"خدم"، و"خدم" أيضًا من الإرصاد. والجمع بين "المخدوم" و"الخدم" من الطّباق؛ لأنّهما بمعنى الأعلى والأدنى.

وألفاظ "تَختَرِقُ السّبعَ الطِّبَاقَ" من التّناسب، كما أنّ لفظ "الموكب" و"العَلَم" من ذلك.

وفي قوله : "حتّى إذا لم تدَعْ.." البيت من التّقسيم؛ إضافة الشّيء إلى ما يناسبه؛ لإضافته "الشّأو من الدّنوّ" إلى "المستبق" و"المرقى" لـ

---

(1) الذي سماه بهذا الاسم هو ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: 654هـ)، وتشاه الأطراف هو : أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى. انظر البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني : 382/2. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. الصعيدي : 584/4.

(2) سورة الأنعام : من الآية 103.

"المستنم". وإنْ قدّرت : مرقى من الدّنوّ، كما مرّ، كانت الموازنة بين "شأوًا لمستبق من الدّنوّ" وبين ما بقي من الألفاظ؛ كلّ كلمة لنظيرتها، وإلاّ فهي بين "شأوًا لمستبق" وبين "مرقى لمستنم". و"الشّأو" و"المستبق" و"الدّنوّ" من مراعاة النّظير، وكذا "المرقى" و"المستنم". وفي البيت الجمع؛ لأنّه جمع "الشّأو" و"المرقى" في أنّهما لم يدعهما لأحد.

وفي قوله : "خَفَضْتَ.." البيت مراعاة النّظير في جميع ألفاظه؛ لأنّها بالجملة من ألفاظ النّحويين، وخصوصًا بين "الخفض" و"الإضافة"، فإنّهما من باب واحد، وبين "النّداء" و"الرّفع"، و"المفرد" و"العَلَم"، فإنّهما من باب واحد. وفيه الطّباق؛ لجمعه بين "الخفض" و"الرّفع". وفيه توريتان نحويتان؛ الأولى : في قوله : "خَفَضْتَ"، فإنّه أراد معناه البعيد، وهو أنّ كلّ منزلة دون منزلتك، وأوهم إرادة خفض اللّفظ، وهي ترشيحيّة؛ لذكر "الإضافة"؛ الّذي يناسب المعنى القريب. والثّانية : في قوله : "بالرّفع"؛ أراد رفع المنزلة، ورشّحها أيضًا بذكر "النّداء" و"المفرد" و"العَلَم". وإنْ شئتَ جعلتها كلّها توريات، ولا يخفى عليك تقريره. وإنْ شئتَ جعلتَ "الإضافة" من التّوريات الحِكْمِيّة؛ الّتي يستعملها الحكماء والمتكلّمون، وهي مقولة الإضافة[1]، إلاّ أنّها ليست بترشيحيّة، بل

(1) مقولة الإضافة: هي النسبة التي لا تُعقل إلاّ بالقياس إلى نسبة أخرى معقولة بالقياس إلى الأول كالأبوة والبنوة، فإنّ كلا منهما نسبة لا تعقل إلاّ بالقياس إلى الأخرى. ومقولة الإضافة هي إحدى المقولات العشر عند الفلاسفة والمتكلمين، وهي ما يلزم أنْ يُحمل عليه كلّ مخلوق ويسند إليه، وهي : الجوهر والكم والكيف والوضع والأين والمتى والجدة والإضافة والفعل والانفعال.

مطلقة. وفيه التّسهيم. وأبدع في توريات هذا البيت، برّد الله ضريحه، وأسكنه من أعلى الجنان بحبوحه، بمنّه وفضله وجوده وطَوْله.

وفي قوله : "كَيْمَا.." البيت مراعاة النّظير في جميع ألفاظه. وبين قوله : "وَصْلٍ أيِّ مُستَتِرِ" وقوله : "وسِرٍّ أيِّ مُكتَتِمِ" موازنة. وفيه من التّقسيم؛ إضافة الشّيء إلى ما يناسبه؛ لإضافة "الاستتار عن العيون" إلى "الوصل"، و"الاكتتام" إلى "السرّ". وفيه تجنيس الاشتقاق في "مستتر" و"سرّ". وفيه التّكرير في لفظ "أيّ"؛ لاختلاف المتعلّق أيضًا. وفيه التّسهيم.

وفي قوله : "فَحُزتَ.." البيت مراعاة النّظير؛ في "الحوز" و"الاشتراك" و"الجواز" و"الازدحام". وألفاظ الشّطر الأوّل موازِنة لألفاظ الثّاني. وفيه التّقسيم؛ لإضافة "نفي الاشتراك" إلى "حَوز كلّ فَخَار"، و"نفي الازدحام" إلى "جواز كلّ مقام"، وفيه الإرصاد. وفيه تجنيس التّصحيف في "حُزت" و"جُزت".

وفي قوله : "وجَلَّ.." البيت مراعاة النّظير، ولا يخفى عليك، والتّقسيم؛ لإضافة "الجلال" إلى "مقدار ما وُلِّي من الرّتب"، و"العزّ" إلى "ما أُولِي من النِّعم". وألفاظ الشّطر الأوّل موازِنة لألفاظ الشّطر الثّاني، وفيه الإرصاد أو التّخيير. قال بعضهم : «وإنْ جُعل "وعَزَّ" بمعنى وجلّ أيضًا كان من التّفريع؛ أيْ جلّ مقدار كذا، كما جلّ إدراك كذا».

قلتُ : ولا يبعدُ مع إبقاء "عزَّ" على حقيقتها.

وفي "وُلّيت" و"أُوليت" التّجنيس اللاّحق، وهو : «اخْتِلاَفُ الكَلِمَتَيْنِ بِحرْفَيْنِ غَير مُتَقَارِبِي المَخرَجِ». نحو : تَفْرَحُونَ وتَمْرَحُونَ[1]. وتقدّم[2]. قيل : «وفيه استتباع؛ لأنّ مدحه بذلك يستلزم علوّه على مَن زاحَمه».

قلتُ : وفيه بُعد.

وفي قوله : "بُشْرى لنا.." البيت التّكرير في "لنا". وفيه الاحتراس في "غير منهدم"؛ وهو إمّا من الإرصاد، أو من التّخيير. وفيه المذهب الكلامي في "إنّ لنا.." إلى آخره.

وفي قوله : "لمَّا دَعَا.." البيت مراعاة النّظير في جميع ألفاظه. وتجنيس الاشتقاق بين "دعَا" و"داعِينا". وفيه التّوشيح والتّكرير في لفظ "أكرم". قال بعضهم : «ويحتمل تكرير "أَكْرَم" أنْ يكون من الجناس؛ لأنّ من البيانيّين[3] مَن يحدّ التّجنيس، ولا يشترط في حدّه اختلاف معنى اللّفظين».

قلتُ : وعدم اشتراطه - إنْ اتّفق لبعضهم - فهو مسامحة.

وفيه الإرصاد، وهو أيضًا من المذهب الكلامي كما تقدّم في التّفسير. ويمكن أنْ يكون فيه الاستتباع؛ لمدحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمعنىً على وجه يستتبع مدحه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بمعنى آخر، وهو كون أمّته أكرم الأمم؛ فإنّ في ذلك تشريفًا له، أو هو من الاستطراد.

---

(1) يشير بمثاله هذا إلى قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾. سورة غافر : الآية 75.

(2) وذلك في شرح أولى أبيات القصيد.

(3) منهم ابن حجة الحموي. انظر كلامه على الجناس في كتابه خزانة الأدب: 54/1.

الإعراب

يا : حرف نداء.

خَيْرَ : منادى مضاف، وهو منصوب؛ قيل : بفعل لا يجوز إظهاره، كما لا يظهر فعل القَسَم؛ أيْ أنادي، وهو من صيغ الإنشاء، لا من صيغ الخبر، وهو مذهب الجمهور من البصريين[1]. وقيل : بحرف النّداء؛ أيْ بما فيه من معنى الفعل ولا إضمار، لاستقلال الكلام بالحرف مع الاسم، وهو ظاهر "**الإيضاح**"[2].[3] وتقدّم أحكام أقسام المُنادى في الإعراب والبناء في فصل التّفسير.

ومَن : مضاف إليه اسم موصول، أو نكرة موصوفة، وما بعده صلة أو صفة، والعائد المضاف إليه "ساحة".

وخبر "أَفْعَل تفضيل" تقدّم القول فيه في قوله : "شَرّ مِنَ التّخَمِ".

وسعيًا : مصدر في موضع الحال من "العَافُون"؛ أيْ ساعين، وعامله "يمّم" أو يسعون المحذوف، وهو الحال على المذهبَين.

وفوق : ظرف في موضع الحال عطف على الحال الأُولى، والعامل فيه "يمّم"، أو كون خاص يدلّ عليه السّياق؛ أيْ وراكبين، أو مطلق؛ أيْ كائنين. ومثله في الإعراب : ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾[4].

---

(1) وهو مختار سيبويه. انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 385/3.

(2) هو الإيضاح في علل النحو. لأبي القاسم الزَّجّاجي (المتوفى: 337 هـ). وهو مطبوع بتحقيق الدكتور مازن المبارك. بدار النفائس. بيروت.

(3) انظر همع الهوامع. السيوطي : 70/2.

(4) سورة الحج : من الآية 27.

وفي داجٍ : يتعلّق بـ "سَرَى البَدْرُ"، أو بـ "سَرَيْتَ"، والأوّل أرجح.
ومن الظّلم : صفة "داجٍ".
وبِتّ : عطف على "سَرَيْتَ".
وجملة "ترقى.." في موضع نصب خبر "بات"؛ أيْ راقيًا. وإلى : يتعلّق بـ "ترقى". و"أن" مع الفعل : بتأويل مصدر مخفوض بها.
ومن قاب : متعلّق بـ "نِلت". و"من" للابتداء، أو صفة لـ "منزلة". و"من" للبيان.
وجملتا "لم تُدرك.." و"لم تُرم.." صفتان لـ "منزلة"، ويجوز كونهما حالَين إنْ كان المجرور قبلهما صفة.
وقدّمتك : عطف على "بِتّ"، والكاف مفعول. وجميع : فاعل. وأُلحق الفعل التّاء؛ لأنّ "جميع" في معنى جماعة. وقيل: لإضافته إلى جمع التّكسير؛ الّذي يجوز تأنيثه، وإذا جاز في "قُطِعَتْ بَعْضُ أَصَابِعِهِ" تأنيث المضاف؛ لإضافته إلى مؤنّث، مع أنّ المضاف ليس في معنى المضاف إليه، فهنا أحرى؛ لأنّه في معناه.
بها : يتعلّق بـ "قدّمتك"، وتقدّم أنّ الباء سببيّة، ويجوز كونها ظرفيّة؛ أيْ فيها. والضّمير للمنزلة.
والرّسل : تقدّم إعرابه.
وتقديم : مصدر مشبّه به؛ أيْ تقديمًا مثل. وعلى خدم : متعلّق به.
وجملة "وأنت تخترق.." : إمّا معطوفة على ما قبلها، وإمّا حال من الكاف في "قدّمتك". والسّبع : مفعول، وحذف التّاء منه؛ لأنّ المعدود مؤنّث.
والطّباق : نعته، وهو مصدر في الأصل، ومعناه : مطابقة، أو ذات الطّباق.

بهم : إمّا حال من فاعل "تخترق"؛ أيْ مارٌّ بهم، أو يتعلّق بـ "تخترق" على أنْ يُضمّن معنى "تمرّ"، وتنصب "السّبع" على هذا انتصاب الظّروف، أو يتعلّق به على أنْ يكون الموكب الملائكة، وهم مصاحبون له في الاختراق، فتكون الباء للمصاحبة.

وفي موكب : حال من فاعل "تخترق"، أو متعلّق بـ "تخترق"، أو خبر ثانٍ عن "أنت". وكان ومعمولاها : صفة لـ "موكب".

وحتّى : يتعلّق إمّا بـ "ترقى"، أو بـ "تخترق".

وجملة "لم تدع.." : في موضع خفض بإضافة "إذا" إليها. و"تدع" وإنْ كان ماضيًا؛ لأنّ "لم" تصرف المضارع لذلك، لكن لمّا عمل فيه الظّرف المستقبل الّذي هو "إذا" لإضافتها إليه، صيّره مستقبلاً، فهو منقول بعد نقل.

ولمستبق : صفة لـ "شأوًا"، ويتعلّق بـ "تدع". ومن الدّنوّ : كذلك. و"من" على الأوّل للبيان، وعلى الثّاني للابتداء.

ولا مرقى : عطف على "شأوا"، و"لا" زائدة لتأكيد النّفي.

ولمستنم : صفة لـ "مرقى".

وجملة "خفضت.." : جواب "إذا"، وهو العامل فيه، وهو مستقبل؛ لعمله في الظّرف المستقبل.

بالإضافة : متعلّق بـ "خفضت". قيل : «والباء مثلها في "كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ"». فتأمّله. ويحتمل أنْ يكون "بالإضافة" صفة لـ "مقام"، أو حالاً من "كلّ"؛ أيْ كائنًا خفضه بالإضافة إلى مقامك، والباء للمصاحبة.

وإذ : ظرف للزّمان الماضي. قيل : «وعامله "خَفَضْتَ"». وفيه نظر، لأنّ "خَفَضْتَ" عمل في الظّرف المستقبل، فلا يعمل في الماضي؛ لاستحالة اجتماعهما، ويحتمل كون "إذ" حرف تعليل.

وبالرّفع : يتعلّق بـ "نُودِيتَ"، والباء سببيّة، أو يُجعل حالاً من تاء "نُودِيتَ"، وهو النّائب عن الفاعل، والباء للمصاحبة.

ومثل : حال من النّائب، ولا يقبل تعريفًا بالإضافة؛ لشدّة إبهامه. وانظر هل يصحّ جَعله نعتًا لمصدر محذوف؛ أيْ نداءً مثل..

كَيْمَا : تقدّم متعلّقها. و"كي" حرف جرّ بمعنى لام التّعليل، ولا تجرّ، إلاّ أنّ المصدرية - أو "ما" أختها، أو الاستفهاميّة، و"ما" هنا مصدرية - تُسبك مع الفعل بعدها بمصدر هو المجرور؛ أيْ لفوزك. وتفوز : على هذا مرفوع، وتقدّم في الغريب بعض أحكامها. قيل : «ويحتمل "تفوز" أنْ يكون منصوبًا بـ "أن" مقدّرة». فتكون "كي" جارّة، أو تكون ناصبة بنفسها، و"ما" زائدة على التّقديرين.

بوصل : متعلّق بـ "تفوز". وأيّ مستتر : صفة لـ "وصل".

وعن العيون : متعلّق بـ "مستتر".

وسرّ : عطف على "وصل". وأيّ مكتتم : صفة له.

وكون "أيّ" صفة؛ المراد به التّعظيم؛ فرجل أيُّ رجل؛ أيْ عظيم جمع محامد الرّجال، وهي في الحقيقة صفة لموصوف محذوف؛ أيْ وصل مستتر أيّ مستتر، وسرّ مكتتم أيّ مكتتم؛ لأنّها إذا كانت صفة لنكرة أو حالاً لمعرفة، يلزمها الإضافة لفظًا ومعنىً إلى ما يماثل الموصوف - لفظاً ومعنىً - كهذا التّقدير، أو معنىً خاصّة؛ نحو : مَرَرْتُ

بصواب ما وقع في عبارة بعضهم؛ لأنّه لا محلّ له حينئذٍ؛ يعني : لتعلّقه بظاهر. و"من" للبيان، والمبيّن العائد أو الموصول. ولا يبعد كون "ما" نكرة موصوفة، والجملة بعدها صفة.

وعزّ.. إلى آخره : إعرابه كإعراب ما قبله.

بشرى : خبر مبتدأ محذوف، أيْ : هذه المناقب الشّريفة بُشرى. أو مبتدأ وساغ الابتداء به على مذهب مَن يجيزه بمجرّد حصول الفائدة؛ نحو: "حَصَاةٌ سَبَّحَتْ، وشَجَرَةٌ سَجَدَتْ"[1]. لا نحو : «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»[2]، كما مثّل به بعضهم؛ لأنّ "صلوات" إنْ كان مخفوضًا، فالمسوّغ الإضافة، وإنْ كان مرفوعًا، فيحتمل كونه نعتًا؛ لأنّه في معنى : متعبّدٌ بهَا، وهو مسوّغ، والخبر "كتبهنّ الله". وإنْ كانت "بُشرى" دعاءً، فهو المسوّغ، وإنْ منعه بعضهم، أو المسوّغ ما فيه من التّعظيم؛ لأنّ التّنكير له نحو : "شرٌ أهَرَّ ذا نابٍ"[3] عند بعضهم، فكأنّها موصوفة؛ أيْ بشرى عظيمة.

و "لنا" : على الأوّل صفة، وعلى الثّاني خبر. ويحتمل أنْ يكون "بشرى" منصوبًا لمحذوف؛ أيْ بُشّرنا بشرى، و"لنا" صفة.

ومعشر : إمّا منادى بإسقاط حرف النّداء، أو منصوب على الاختصاص، وهو أشبه شيء بالنّداء، إلاّ أنّه بعد ضمير المتكلّم، أو غيره

---

(1) انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 295/1.

(2) هو حديث أصله في الصحاح، ورواه بهذا اللفظ الْحُمَيْدِيُّ في مسنده عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مرفوعا. انظر مسند الحميدي : 190/1. رقم الحديث : 388.

(3) هو بمعنى: ما أهرّ ذا ناب إلاّ شر. انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 290/1.

وداعينا : مفعول "دعا" الأوّل، وسُكّن ياؤه ضرورة؛ لأنّ فتحة المنصوب تظهر في الياء، وهي ضرورة كثيرة الوقوع، ومنه قول النّابغة : رَدَّتْ عَليهِ أقَاصِيهِ، ولبّدَهُ[1]. وقُرئ : ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾[2]، بجمع التّكسير وتسكين الياء[3]. ونا : في موضع خفض بإضافة "داعٍ" إليه، وبه يتعلّق "لطاعته"؛ نحو : ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ﴾[4].

بأكرم : مفعول ثانٍ لـ "دعا"، وقد يُحذف منه حرف الجرّ؛ نحو : دَعَتْني أَخَاهَا.. البيت[5]. وقوله : دَعَاني الغَواني عَمّهُنّ[6].

وكنّا : كان واسمها. أكرم : خبرها. والجملة : جواب "لمّا".

---

(1) والبيت بتمامه :

رَدَّتْ عَليهِ أقَاصِيـــهِ، ولبّـدَهُ ضَرْبُ الوَلِيدَةِ بالمِسحَاةِ فِي الثَّأَدِ

انظر البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 5/4.

(2) سورة المائدة : من الآية 89.

(3) أي "أَهَالِيكُمْ". وهي قراءة جعفر بن محمد. انظر تفسير الكشاف. الزمخشري : 673/1.

(4) سورة الحديد : من الآية 8.

(5) وردت العبارة في قول الشاعر عبد الرحمن بن أم الحكم، وسبق توثيقه، والبيتان :

دَعَتْنِي أَخَاهَا أم عَمرٍو ولَم أكُن أَخَاهَا، وَلَم أَرْضَعْ لَهَا بلَبَـانِ

دَعَتْنِي أَخَاهَا بَعْدَمَا كَانَ بَيْنَنَـــا مِنَ الأَمْرِ مَا لاَ يَفْعَلُ الأَخَوَان

(6) هو من قول الصحابي نمر بن تولب، والبيت بتمامه :

دَعَاني الغَوَاني عَمّهُنّ، وخِلتُني لِيَ اسمٌ، فَمَا أُدْعَى بِهِ وَهُوَ أَوّلُ

انظر البيت في جمهرة أشعار العرب. أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : ص 424.

بقوله: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾[1]. هذا مع أنّه كُتب له في الألواح موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء، وقد أمر الله تعالى مدينة العِلم نبيّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالتضرّع إليه في الازدياد من العِلم بقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾[2].

وبالعِلم يُعرف كون النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هو الآية الكبرى؛ إذْ ذلك إنّما هو للمعتبر، ولا يعتبر إلاّ العالم ذو البصيرة : ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[3]. فإذا اطّلع على أنّه آية كبرى، أعقبه ذلك العِلم بأنّه نعمة عظمى، وهو المغتنم لذلك، وأنّى ينال هذه الدّرجات مَن لم يتأمّل السُّنن، ويتتبّعها، ولا يحصل العِلم إلاّ مع تفرّغ البال له، وقطع العلائق الّتي تشغل عنه، ولذلك كان أفضل أوقات طلبه اللّيل، ألا ترى أنّ أصله إنّما حصل لسيّد البشر بعد تنقية قلبه من علاقات الدّنيا؛ الّتي هي حظّ الشّيطان، وذاك تفرّغ البال. وأيضًا في اللّيل - وقت الخلوات، وهدوء الأصوات – سَرَيْت من حرم.. البيت.

---

(1) سورة الكهف : من الآية 66.

(2) سورة طه : من الآية 114.

(3) سورة الحشر : من الآية 2.

[أية اللّيل]

قيل : «إنّما أُسرِي به ليلاً؛ لأنّ الله تعالى لمّا محا آية اللّيل، وجعل آية النّهار مبصرة، انكسر اللّيل، فجُبر بأنْ أُسرِي فيه بمحمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "**أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ**"[1]».[2]

وقيل : «افتخر النّهار على اللّيل بالشّمس، فقيل : لاَ تفتخر، إنْ كانت شمسُ السّماءِ تُشرِقُ فيك، فستعرج شمسُ الأرضِ في اللّيلِ إلى السّماءِ»[3].

وقيل : «لأنّ اللّيل وقت غَفْلةِ الرُّقَباء، وغيبة الأجانب»[4].

وقيل : «غَيْرَة مِن الأحْبابِ في ظُلَم الحجاب».

وقيل : «لأنّ اللّيل خُلق من الجنّة، والنّهار من النّار، لمّا خُلقت الجنّة، قال الله جلّ جلاله لجبريل عليه السّلام : ادخلها. فدخل، فقال : طُوبى لمَن خُلقت هذه مِن أجله، إلاّ أنّ فيها لمعة سوداء. فأخرج الله تعالى تلك اللّمعة، وخَلَق منها اللّيل. ولمّا خُلقت النّار، أمره فدخلها، فقال : الويل كلّ الويل لمَن خُلقت مِن أجله، إلاّ أنّ فيها لمعة بيضاء. فأخرج الله تعالى تلك اللّمعة، وخَلَق منها النّهار. فعُرج به فيما خُلِق من الجنّة»[5].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) انظر سبل الهدى والرشاد. الصالحي الشامي : 15/3.

(3) انظر المواهب اللدنية. القسطلاني : 14/3. وعزا النقل لابن مرزوق.

(4) انظر تفسير القشيري : 334/2.

(5) انظر بستان الفقراء ونزهة القراء. العماد : 223/1.

يديه، فنُودي : يا محمّد، افتح يدَيك. فقال : «**إلَهِي فِي إحْدَى يَدَيَّ حَسَنَاُت أُمَّتِي، وَفِي الأُخْرَى سَيِّئَاتُهُمْ**». فنُودي : يا محمّد، افتح يدَيك، فقد قبلنا حسناتهم، وغفرنا سيّئاتهم. ولمّا أراد الانصراف قال : «**رَبِّ، إنَّ لِكُلِّ قَادِمٍ مِنْ سَفَرِهِ تُحْفَةٌ، فَمَا تُحْفَةُ أُمَّتِي؟**». قال : أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم ما ماتوا، وأنا لهم في القبور، وأنا لهم في النّشور[1].

فركننا لا ينهدم حال محيانا، ولا حال مماتنا، ولا في بيوتنا، ولا في قبورنا، ولا في سكوننا، ولا في نشورنا :

يَا صَاحِبِي أَبْشِرْ وَأَنْتَ مخبرٌ ... أرأيـت يَوْمًا مِثْـلَ هَـذَا شَـاذَنَا
أَوْ مَـا كَفَـاهُ أَنْ أُرِينَـا ظَـاهِرًا ... مِنْ حُسْنِهِ حَتَّى أُرِينَا البَاطِنَا
صِلْنِي فَإِنِّي عَنْ دِيَارِكَ ضَاعِنٌ ... وَمِنَ المُرُوَّة أَنْ تُزَوِّدَ ضَاعِنًا[2]

اللّهمّ بحقّ محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآله وأزواجه ذريّته أنْ تجعلنا في الدّنيا والآخرة من أمّته، وأن تُميتنا وتحشرنا على محبّته واتّباع سنّته.

❁ ❁ ❁

---

(1) لم أقف عليه مسندًا.
(2) لم أقف على قائل هذه الأبيات.

فهرس

أَعْيَا الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى ... فِي الظُّلَمِ.................................3
شَرْحُ اَلْغَرِيْب 3
[تقسيم الكواكب وحجمها]..12
التَّفْسِيْرُ...14
[فضائل الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تتناهى أنواعها] 14
[أنوار الرّسل عليهم السّلام مِن نور محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ].....................23
اَلْمَعَانِي 29
اَلْبَيَانُ...33
اَلْبَدِيْعُ 35
[حقيقة التّوشيح] 36
[حقيقة التّفريق]...39
اَلْإِعْرَاب 40
اَلْإِشَارَاتُ 46
[من خصائص أولياء الله]..46
[العزلة وفضلها]...48
أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ ... وَمُلتَثِمِ...50
شَرْحُ اَلْغَرِيْبِ 50
[معاني طوبى]...59
التَّفْسِيْرُ 62

[آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مولده] 151
[مرضعات النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] 162
[حادثة شقّ الصّدر] 164
[طفولة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] 165
فَائِدَةٌ 166
[إخوة الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرّضاعة] 166
[آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند وفاته] 168
[ابن مرزوق يروي قصة اليهودي مع قبر النبيّ عليه السلام] 172
[ابن مرزوق يذكر تاريخ تواجده في مَكّة المكرّمة] 174
[غسل النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفينه ودفنه] 175
[إرهاصات ظهور النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] 177
[ذكر بعض الأخبار الّتي أشار إليها النّاظم] 185
[أقوال في معنى الأبيات] 191
اَلْمَعَانِي 193
اَلْبَيَانُ 199
[حقيقة المشابهة] 200
اَلْبَدِيعُ 202
[حقيقة التّلميح] 203
[حقيقة العكس والتّبديل] 206
اَلْإِعْرَاب 208
اَلْإِشَارَاتُ 213
[السّعادة أصلها التّخصيص] 213

[فراسة المؤمن] 214
[التّوبة وآثارها] 216
عَموُا وَصَمُّوا فَإِعْلاَنُ البَشَائِرِ لَمْ ... مُلْتَقِمِ 218
شَرْحُ اَلْغَرِيْبِ 218
التَّفْسِيْرُ 236
[العناد أساس الكفر] 236
فَائِدَةٌ جَرَّ إِلَيْهَا الكَلاَمُ فِي قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ 246
[بعض أخبار الكهان الّتي أشار إليها النّاظم] 249
[بعض أخبار القافة] 254
[بعض أخبار الشّهب الّتي أشار إليها النّاظم] 258
[زمن الرّمي بالنّجوم] 259
[سقوط الأصنام عند مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] 261
[خبر أبرهة] 262
[بعض آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] 266
اَلْمَعَانِي 270
اَلْبَيَانُ 274
اَلْبَدِيْعُ 278
[حقيقة الإدماج] 280
[حقيقة الاستتباع] 282
[حقيقة التّفريع] 283
اَلْإِعْرَابُ 284
اَلْإِشَارَاتُ 290

[القصد والتوسّط في الطاعات] 509
[جزاء أولياء الله].. 511
[بركة أولياء الله على العُصاة].. 512
[المنازل العليا تُنال بتخصيص من الله] 515
دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ... مُلْقِيَ السَّلَمِ 518
شَرْحُ الغَرِيْبِ 518
[حقيقة المعجزة ووجه دلالتها].. 526
[حقيقة الشّبهة] 530
التَّفْسِيْرُ 534
[ظهور آيات الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] 534
[وصف آيات الرّسول عليه السلام مع ظهورها لكل من شاهدها]............. 537
[وصف آيات الرّسول عليه السلام بالقِدم والحُدوث] 540
[الإيمان بالبعث الآخر] 546
[دوام آيات الرّسول عليه السلام على مرّ العصور].............................. 547
[وجه معرفة كون القرآن معجزا].. 550
[آيات القرآن مُحكمات]... 553
[العلم بمتشابه القرآن] 556
[غلبة القرآن على سائر الحجج]... 559
[أوجه عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن] 562
اَلْمَعَانِي 567
[حقيقة الإيغال]... 568
اَلْبَيَانُ... 572

اَلْبَدِيْعُ 573
اَلْإِعْرَابُ 576
اَلْإِشَارَاتُ 582
[ظهور آيات الله الدّالة على ألوهيته ووحدانيته] 582
[رتبتا الفكر والذكر] 584
[فضائل آيات القرآن] 586
رَدَّتْ بَلاَغَتُها دَعْوَى مُعَارِضِهَا ... مِنْ سَقَمِ 589
شَرْحُ الغَرِيْبِ 589
[حقيقة البلاغة والفصاحة] 590
التَّفْسِيْرُ 606
[بلاغة آيات القرآن] 606
[وجوه إعجاز القرآن] 608
[قيمة معاني آيات القرآن] 612
[معاني آيات القرآن لا تُعدّ ولا تُسام] 616
[أحاديث الحوض] 625
[صفة الصراط والميزان] 632
[إنكار الكفار دلالة الآيات على صحة النبوّة] 635
اَلْمَعَانِيْ 643
اَلْبَيَانُ 645
اَلْبَدِيْعُ 647
[حقيقة الجمع مع التّفريق] 648
اَلْإِعْرَابُ 652

اَلْبَيَانُ 737
[حقيقة الكناية] 738
اَلْبَدِيْعُ 740
اَلْإِعْرَابُ 745
اَلْإِشَارَاتُ 754
[طلب العلم] 754
[أية اللّيل] 756

مادة محمية بموجب حقوق النشر